المحتسب ودوره في خدمة البيئة الاقتصادية والصحية والاجتماعية في مصر إبان العصر الفاطمي (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)

محمود محمد مصطفى السماحي

مدرس بقسم التاريخ والحضارة، كلية اللغة العربية القاهرة، جامعة الأزهر

(العدد الخامس والثلاثون)

(الإصدار الأول)

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

المحتسب ودوره في خدمة البيئة الاقتصادية والصحية والاجتماعية في مصر إبان العصر الفاطمي (٣٥٨-٥٥٦٧/٩٦٩-١١٧١م).

محمود محمد مصطفى السماحي

قسم التاريخ والحضارة، كلية اللغة العربية، القاهرة، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.

البريد الالكتروني: mahmoudelsamahy@azhar.edu.eg

ملخص البحث: يتناول البحث الحديث عن نظام الحسبة ودور المحتسب الرقابي والإشرافي في خدمة البيئة أثناء العصر الفاطمي، وذلك من خلال الخدمات الجليلة التي قدمها المحتسب للمجتمع الإسلامي في مصر خلال هذا العصر، وبيان الدور الفعال الذي قام به المحتسب في الحفاظ على سلامة البيئة، ونظافتها، وحمايتها من كل تلوث يضر ويؤذي، وجهوده في التقليل من الفساد، وإعادة الأمور إلى نصابها، لاسيما فيما يتعلق بأقوات الناس وحياتهم اليومية، كما يسلط البحث الضوء على دور المحتسب في خدمة البيئة الاقتصادية، والصحية، والاجتماعية، خلال العصر الفاطمي، وسأبدأ البحث بالحديث عن مفهوم البيئة، وحرص الإسلام على حمايتها ونظافتها، وتعريف الحسبة وأهميتها في الحفاظ على المجتمع، وتعريف المحتسب وشروطه، وواجباته، ونبذه عن الحسبة في مصر قبيل العصر الفاطمي، والبحث يتناول ثلاثة مباحث تبدأ بتوطئة عامة عن الحسبة في العصر الفاطمي، ثم الحديث في المبحث الأول عن دور المحتسب في خدمة البيئة الاقتصادية خلال العصر الفاطمي، وفي الثاني دور المحتسب في خدمة البيئة الصحية والاجتماعية خلال تلك المدة، أما الثالث فالحديث فيه عن دور المحتسب في خدمة البيئة الاجتماعية خلال تلك الفترة.

الكلمات المفتاحية: الحسبة، المحتسب، البيئة، العصر الفاطمي، الصحة.

Al-Muhtasib and his role in serving the economic, health and social environment during the Fatimid era

Mahmoud Mohamed Mostafa Al-Samahi
Department of History and Civilization, Faculty of Arabic Language, Cairo, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Email: mahmoudelsamahy@azhar.edu.eg

Abstract: The modern research deals with the Al-Hisbah system and the supervisory and supervisory role of Al-Muhtasib in serving the environment during the Fatimid era, through the great services provided by Al-Muhtasib to the Islamic community in Egypt during this era, and explaining the effective role played by Al-Muhtasib in maintaining the safety, cleanliness, and protection of the environment from Every pollution harms and harms, and his efforts to reduce corruption, and restore things to their rightful place, especially with regard to people's livelihood and their daily lives. Islam was keen on its protection and cleanliness, the definition of the Hisba and its importance in preserving society, the definition of the Muhtasib, its conditions, and duties, and an overview of the Hisbah in Egypt before the Fatimid era. Al-Muhtasib in the service of the economic environment during the Fatimid era, and in the second the role of the Muhtasib in serving the health and social environment during that period. for that period.

Keywords: Hisba, Muhtasib, Environment, Fatimid era, Health.

المقدمة

مما لا شك فيه أن الإسلام هو الدين الخاتم الذي ارتضاه الله دستورًا للبشرية عامة، قد اهتم بموضوع البيئة وأكد على المحافظة على كل مكوناتها، ذلك أن خلودية هذه الرسالة وعموميتها صفتان ضمنتا للإسلام شموليته لكل مناحي الحياة مادية ومعنوية، ولكل ما يؤدي به إلى السعادة الأخروية، ولا شك أن البيئة بكل جوانبها تقع ضمن هذه الشمولية إن لم نقل إنها المرتكز فيها، وذلك لأن البيئة هي مسرح تحقيق الخلافة التي خلق الله الإنسان من أجلها، فما لم تتحقق شروط السلامة الكاملة للبيئة لا تتحقق الخلافة التي دعي الإنسان لتحقيقها.

إن المتمعن في آيات القرآن الكريم يجد أن موضوع البيئة تردد صداه في سور كثيرة، تناولت عناصر البيئة المختلفة من أرض، وما تضمه من مكونات حية وغير حية، وما يحيط بها من غلاف غازي وغيره، وبحار، وما تحتويه من عوالم يصعب إدراك عظمتها، وكلها تدل على قدرة الله وعظيم صنعه، قال تعالى: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (١)، وتدل كذلك على اهتمام هذه الرسالة الخاتمة بتبيان كل ما له صلة بتحقيق السعادة للإنسان، وتسهيل مهمته التي أوكلها الله إليه وهي إعمار الأرض، وتسخير كل ما فيها لخدمته .

إن اهتمام الإسلام بالبيئة من حيث ذكر مكوناتها، ودقة صنعها، وتنوعها، وبيان قيمتها، وروعتها يرتقي إلى أعلى الدرجات، حتى يصل إلى أن يستخدمها القرآن كأحد الوسائل الموصلة إلى متانة البناء العقدي للإنسان المسلم، وذلك حين طالب الإنسان بالنظر فيها، والتفكر في صنعها، والوصول من خلال ذلك إلى إدراك عظمة الخالق سبحانه وتعالى، ومن ثم الإيمان به، والتسليم بقدرته، وتفرده في صنع هذا الكون، قال تعالى: ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢)، ﴿أَفَلَمْ

(١) سورة النمل: من الآية ٨٨.

(٢) سورة يونس: من الآية ١٠٦.

يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(١)(٢)

وقد كان من أهم أهداف الحسبة في المجتمع المسلم حماية تلك البيئة من التلوث وذلك بتعريف الناس بالتدابير الوقائية، والعلاجية، ومراقبة تنفيذها ضمن إطارها العام، وهي المحافظة على المسلمين دينيًا، واقتصاديًا، واجتماعيًا، وصحيًا، هذه التدابير والمراقبة تنطلق من منطلقات عقائدية، وإيمانية تتمثل في الخوف من الله، وعدَّ أي عمل يحدث خللًا بالبيئة منكرا من المنكرات، وكان هذا واضحا في عدة مجالات هى المجال الاقتصادي، والصحي، والاجتماعي(٣)

وقد تعددت اختصاصات المحتسب في العصر الفاطمي، وشملت كل المجالات لكننا سوف نركز الحديث في هذا البحث على ثلاثة منها: وهي أولًا: الدور الرقابي والإشرافي للمحتسب في خدمة البيئة الاقتصادية في العصر الفاطمي، وثانيًا: الدور الرقابي والإشرافي للمحتسب في خدمة البيئة الصحية في العصر الفاطمي، وأخيرًا يتناول البحث الدور الرقابي والإشرافي للمحتسب في خدمة البيئة الاجتماعية في العصر الفاطمي.

وقد اختص البحث بهذه المحاور بحكم الروابط والتأثيرات المتبادلة بين مكونات البيئة الطبيعية، والاجتماعية، فالبيئة النظيفة لا يمكن الوصول إليها إلا بحسن التنظيم، والمعرفة المناسبة، وبتوازن يؤمن عدم الإفراط في الاستثمار، وضمان ديمومة الموارد الطبعية، وامتلاك المجتمع لمستويات مناسبة من الوعي البيئي لكنف ومظلة الطبيعة التي يعيش تحت ظلها، وأصبح أمرًا مؤكدًا لا يقبل الشك بأن الاستقرار والتنمية ترتبطان أوثق ارتباط مع تعزيز اتجاهات تنظيف البيئة ورعايتها وحمايتها، وكل هذا يستلزم إدارة بيئية عصرية ومتطورة من دونها لا يمكن بلوغ الاستقرار والتنمية.

---

(١) سورة ق: آية ٦، ٧.

(٢) محمد فتح الله الزيادي: الإسلام والبيئة، طرابلس، ليبيا، ص٢، ٣.

(٣) حسين مصطفى غانم: الإسلام وحماية البيئة، نشر: مكة المكرمة، السعودية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٢٣٢، ٢٣٣.

التمهيـــــــد

أولًا: مفهوم البيئة، وحرص الإسلام على حمايتها.

ثانيًا: تعريف الحسبة والمحتسب ودورهما في خدمة المجتمع.

ثالثًا: الحسبة في مصر قبيل العصر الفاطمي.

*** أولًا: مفهوم البيئة لغة واصطلاحًا:**

البيئة في اللغة: المكان والمنزل، يقال: أباءه منزلاً أي هيأه له، وأنزله، ومكن له فيه، والاسم البيئة والباءة، وهى مشتقة من بوأ وتبوأ أي أقام وسكن واتخذ منزلًا وتطلق على منزل القوم (١)

وفي الاصطلاح: هي الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان، بما يضم من مظاهر طبيعية خلقها الله، يتأثر بها ويؤثر فيها، وهذا الوسط قد يتسع ليشمل منطقة كبيرة جدًا، وقد يضيق ليتكون من منطقة صغيرة جدًا قد لا تتعدى رقعة البيت الذي يسكن فيه (٢)

وعرفها البعض: بأنها المحيط المادي الذي يعيش فيه الإنسان بما يشمل من ماء وهواء وفضاء وتربة وكائنات حية، ومنشآت أقامها لإشباع حاجاته(٣).

وقد عرفها البعض بأنها: الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، ويحصل منه على مقومات حياته، من غذاء، وكساء، ودواء، ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر (٤)

---

(١) ابن منظور: محمد بن مكرم بن على أبو الفضل الأنصاري (ت٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، مادة بوأ، ج١، ص٣٨، محمد محمود محمدين، طه عثمان الفراء: المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة، دار المريخ، ط٤، ص٣٢٧.

(٢) محمد مرسي محمد مرسي: الإسلام والبيئة، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص١٨، ١٩، زين الدين عبد المقصود: البيئة والإنسان علاقات ومشكلات، دار عطوة، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٣٥.

(٣) محمد مرسي محمد مرسي: الإسلام والبيئة ، ص١٨ ، ١٩ .

(٤) رشيد الحمد ومحمد صباريني : البيئة ومشكلاتها ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، ط٢ ،١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص٢٧ .

* وقد أكَّد الإسلام منذ فجر الرسالة على حمايةَ البيئة، والمحافظة عليها، وسعى إلى تنظيم صلة الإنسان بها على وجه يؤدي إلى استثمارها، وتخفيف طمعه في مواردها الذي قد يهدد أمنه وحضارته ومستقبله بأفدح الضرر، فحذَّر من الإسراف في التعامل معها بكلّ أشكاله وألوانه، وحذّر من الفساد في الأرض بما فيه العامّ والخاصّ، ودعا إلى الموازنة والاعتدال في كلِّ شيء، وأكد على حمايةَ الماء والهواء من كلّ تلوث[١] .

كما وجهنا الدين الإسلامي الى الاتجاه الصحيح بالحفاظ على البيئة في كل صورها، سواء ما يخص الانسان، أو الحيوان، أو الماء، وطهارة الفرد، ونظافته، وكذا المكان بما فيها المساجد، والبيوت، والطرقات، والأسواق، والمرافق العامة، وعدم تلويثها بالقاذورات، أو القمامة، ثم الرفق بالحيوان، لأن البيئة كلها بأرضها، وسمائها، ومائها، وهوائها، وجمادها، ونباتها، وحيواناتها، وما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، كلُّ ذلك قد خَلَقَه الحقُّ تبارك وتعالى مسخَّراً مذللاً للإنسان يعتصر منافعه من بين ثناياها، فهي خلقت له ومن أجله [٢] ، قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ – وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾[٣].

وقد وردت الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على حماية البيئة، وتحذر من شأن كل من يسيء إليها أو يفسد فيها أو يبدل فيها

---

(١) غسان طه ياسن: دور مؤسسة الحسبة في حماية البيئة في الإسلام، مركز التنوير المعرفي، ماليزيا، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م ، ص٢١٤ .

(٢) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي (٨٠٨هـ/١٤٠٥م): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج١ ، ص٤٧٧ .

(٣) سورة إبراهيم : آية ٣٣ .

بالعقاب الشديد ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(١)، ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾(٢)، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

* كما اهتمت السنة النبوية المطهرة بالبيئة وعناصرها وورد في هذا الصدد أحاديث كثيرة، فعن أنسٍ ﷺقال: قال رسولُ الله ﷺ-: ما مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غرساً، أو يَزْرَعُ زَرْعاً، فيأكُلُ منهُ طيْرٌ، أو إنسانٌ، أو بَهيمةٌ، إلا كانَ لهُ به صَدَقَةٌ" (٤) ، ووضعت السنة أيضًا الأساس لحماية البيئة عن طريق حماية المياه من التلوث حفاظًا على الإنسان الذي استخلفه الله في هذا الكون فقد قال رسول الله ﷺ : " اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل " (٥) . كما أمر الرسول ﷺ بضرورة نظافة الطعام الشراب، فأمر ألا يترك وعاء الماء مفتوحًا ولا يترك مكشوفًا للذباب والميكروبات والأتربة حيث قال ﷺ: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء، إلا نزل فيه من ذلك

---

(١) سورة البقرة، آية ٢١١ .

(٢) سورة الأعراف، آية ٥٦ .

(٣) سورة الروم، آية ٤١ .

(٤) البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي (ت٢٥٩هـ/٨٧٠م): صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، بَابُ فَضْلِ الزَّرْعِ وَالغَرْسِ إِذَا أُكِلَ مِنْهُ، ج٣ ، ص١٠٣ ، الألباني : محمد ناصر الدين، نوح نجاتي آدم الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م): مختصر صحيح الإمام البخاري، مكتبة المعارف ، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، بابُ ما يُحذَرُ مِن عواقِبِ الاشتغالِ بآلَةِ الزَّرْعِ أو مجاوَزَةِ الحَدِّ الذي أُمِرَ بهِ، ج٢ ، ص١٠٩ .

(٥) ابن ماجة: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ/٨٨٦م) : سنن ابن ماجة، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر: دار إحياء الكتب العربية، مصر ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م، بَابُ النَّهْيِ عَنْ الْخَلَاءِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، ج١ ، ص٢١٨ .

الوباء»، [١] ووضع الرسول ﷺ تصورًا عظيمًا لحماية البيئة من العبث والإفساد وذلك في تشبيه رائع في الحديث الذي رواه النعمان بن بشير – رضي الله عنه– أن رسول الله – ﷺ قال : " مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا " [٢]

* كما اهتم فقهاء المسلمين بالبيئة وسلامتها؛ لأن العبادة ليست مقصورة على أداء الشعائر الدينية فقط، بل تضم الأخلاق، مثل الصدق، والأمانة، وعدم الأنانية، وحب الخير لكافة عباد الله، فهى تضم العمل بكافة مبادئ الإسلام، وتعليماته، وتشريعاته في شتى شئون الحياة، فإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وعبادة، وحب الخير لأخيك كما تحبه لنفسك عبادة، وعدم تلويث الهواء، والتربة عبادة، وأكد على أن استغلال موارد البيئة بهدف مصلحة ذاتية بحتة، وإحداث ضرر بهذه الموارد، وتغييرها، وتشويهها، وإيقافها عن العطاء، واختفائها، هو أمر منهي عنه في الإسلام[٣] .

*** ثانيًا: تعريف الحسبة والمحتسب ودورهما في خدمة المجتمع.**

الحسبة في اللغة: بكسر الحاء وتسكين السين، اسم من الاحتساب، والاحتساب مأخوذ من الحسب، وهى كما يقول ابن منظور: حسبت الشيء أحسبه حسابا وحسبانا [٤]

---

(١) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري(ت٢٦١هـ/٨٧٥م): صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، باب الأمر بتغطية الإناء، ج٣، ص١٥٩٦ .

(٢) البخاري : صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب هَلْ يُقْرَعُ فِي القِسْمَةِ وَالِاسْتِهَامِ فِيهِ، ج٣، ص١٣٩.

(٣) محمد مرسي محمد مرسي: الإسلام والبيئة، ص٦٢.

(٤) لسان العرب، ج١، ص٣١٤.

أما تعريف الحسبة اصطلاحًا: فهى أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله[١]، وإصلاح بين الناس[٢] قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [٣]

وعرفها ابن خلدون بأنها: "وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا له، فيتعين فرضه عليه، ويتخذ الاعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة [٤] .

وعرفها جمهور الفقهاء بأنها: "الأمر بالمعروف الذي ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله"[٥]

والمعروف هو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات، والمقبحات[٦]، والمنكر ضد المعروف، وهو كل ما قبحه الشرع، وحرمه، وكرهه [٧] .

---

(١)الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٣٤٩.

(٢) ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد بن الأخوة، القرشي، ضياء الدين (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٩م): معالم القربة في طلب الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، صديق المطيعي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص٥١.

(٣) سورة آل عمران: من الآية ١٠٤ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ، ج١ ،ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٥) نزية حماد، معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، المعهد العالمي للفكر الإسلامي فرجينيا، الولايات المتحدة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص١٢٠ .

(٦) ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت ٦٠٦هـ/١٢١٠م): النهاية في غريب الحديث والأثر تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج٣ ، ص ٢١٦ .

(٧) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ،ج٥ ، ص١١٥ .

*** أهمية الحسبة في الحفاظ على المجتمع:**

يجب العلم بأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر دعامة من دعائم الدين، وأصل مهم من أصول قيام الحضارة الإسلامية، ولا قيام لشريعة الإسلام بدونه، لأنه القطب الأعظم في الدين، وهو المهمة الذي ابتعث الله بها النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد ، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد[١]، و قد وردت الكثير من الآيآت القرآنية والأحاديث النبوية التي تظهر فضائل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ففي كتاب الله وصف الله الأمة الإسلامية بأنها خير أمة؛ لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[٢]، وقال: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[٣]، وقال تعالى ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[٤].... والآيات كثيرة في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ وردت الكثير من الأحاديث التي تحث على الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، منها حديث درة بنت أبي لهب قالت «جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال: من خير الناس يا رسول الله قال: آمرهم بالمعروف،

---

(١) الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) : إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج٢ ، ص٣٠٦ ، ابن الأخوة : معالم القربة في طلب الحسبة ، ص٦١ ،أحمد مصطفى المراغي : الحسبة في الإسلام، تحقيق: محمد عبد الرحمن الشاغول، مكتب الروضة الشريفة للبحث العلمي، الجزيرة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٦ .

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٠٤ .

(٤) سورة التوبة: ٧١.

وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلهم [١] ، ومما يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضًا: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب تكفير الذنوب، فقد قال رسول الله ﷺ: « فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٢]

وقد بين الإمام النووي أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: "واعلم أن هذا الباب – أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدا وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله أن يعتني بهذا الباب، فإن نفعه عظيم"[٣] .

& تعريف المحتسب: هو من يقوم بالاحتساب، أى يأمر بالمعروف وينهى المنكر احتسابًا، إلا أن الفقهاء خصصوا هذا الاسم بمن يُعَيّنُه ولي الأمر للقيام بالاحتساب، وسموا غير المعين بالمتطوع، فالمحتسب هو من نصبه الإمام أو

---

(١) ابن حنبل : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ/٨٥٥م): مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ،نشر: مؤسسة الرسالة ،ط١، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م ، ج٤٥ ، ص٤٢١ .

(٢) مسلم : صحيح مسلم ، باب في الفتنة التي تموج كموج البحر،ج٤ ، ص٢٢١٨ .

(٣) أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م): المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ج٢، ص٢٤.

نائبه للنظر في أحوال الرعية، والكشف عن أمورهم ومصالحهم، وبياعاتهم، ومأكولهم، ومشروبهم، وملبوسهم ومساكنهم، وطرقاتهم [١] .

& شروط اختيار المحتسب:

يجب أن يكون مسلمًا حرًا، بالغًا، عاقلًا، عدلًا، قادرًا، مكلفًا، وأن يكون ذا رأي، وصرامة، وخشونة في الدين، عارفًا بأحكام الشريعة، وبالمنكرات الظاهرة، ليعلم ما يأمر به، وينهى عنه، فإن الحسن ما حسنه الشرع، والقبح ما قبحه الشرع [٢] .

& واجبات المحتسب:

يجب على المحتسب أن يلتزم بجملة من الآداب، والأخلاق، كي يكون عمله مقبولا عند الله أولًا، وعند الناس ثانيا، وأهم هذه الآداب أن يعمل بما يعلم، وألا يكون قوله مخالفا لفعله، فقد قال الله عز وجل في ذم علماء بني إسرائيل ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [٣].

كما يجب عليه أن يقصد بقوله، وفعله وجه الله، وطلب مرضاته، وأن يكون خالص النية، لا يشوبه في طويته رئاء، ولا مراء، وأن يكون مواظبا على سنن رسول الله ﷺ، هذا مع القيام على الفرائض، والواجبات، وأن يكون سمته الرفق، ولين القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه، فإن ذلك أبلغ في استمالة القلوب، وحصول المقصود.

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٣٤٩، ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٥١.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ٣٥١، الشيزري: عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله العدوي الشيزري الطبري الشافعي (ت ٥٩٠هـ/١١٩٤م): نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، تحقيق: الباز العريني، مطبعة التأليف والنشر، القاهرة، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م، ص٦، ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٥١، ٥٢.

(٣) سورة البقرة: من الآية ٤٤.

وينبغي أن يكون عفيفًا عن أموال الناس، متورعًا عن قبول الهدية من المتعيشين، وأرباب الصناعات، فإن ذلك رشوة؛ ولأن التعفف عن ذلك أصون لعرضه، وأقوم لهيبته، ويجب عليه أن يلزم غلمانه، وأعوانه بما التزمه من هذه الشروط، فإن أكثر ما تتطرق التهمة إلى المحتسب من غلمانه، وأعوانه، فإن علم أن أحدا منهم أخذ رشوة، أو قبل هدية صرفه عنه، لتنتفي عنه الظنون، وتنجلي عنه الشبهات [١].

كما يجب عليه مراقبة الأسواق، والنظر في مكاييلها، وموازينها، والأسعار، وحالات الاحتكار، والغش، ومراقبة أهل الحرف، والصناعات، ومنعهم من الغش، والتجاوز، وبذل كل ما في الوسع للحفاظ على البيئة، ونظافتها، وغير ذلك مما يضر بالناس، فالمحتسب قديمًا يشبه اليوم موظف البلدية، والصحة المكلف بمراقبة ومراعاة الشروط الصحية في الأسواق، وما تضمه من مطاعم، ومتاجر، ومراقبة الطرقات، والحدائق، وغير ذلك من الأماكن العامة، والحيلولة دون الوقوع في المنكرات الشرعية [٢].

وبالإجمال: فإنه يجب على المحتسب حماية محارم الله تعالى أن تنتهك، والحفاظ على البيئة التي سخرها الله لخدمة الإنسان، وصيانة أعراض الناس، والمحافظة على المرافق العامة، والأمن العام للمجتمع، ومراقبة كفاءة القيام بالمهن، وضوابط أداء الحرف المجتمعية المتنوعة، إضافة إلى الإشراف العام على الأسواق وأصحاب الحرف والصناعات وإلزامهم بضوابط الشرع في أعمالهم، وتوجيه المعاملات المرتبطة بها، وتوجيه السلوك الإنساني، وضبط

---

(١) الشيزري: نهاية الرتبة طلب الحسبة، ص٦ -١٠، ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ٥٦ -٦٠.

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م): الحسبة في الإسلام، أو وظيفة الحكومة الإسلامية، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ص١٥ -٢٣، ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ١٣٥ – ١٣٨، أحمد مصطفى المراغي: الحسبة في الإسلام ، ص٥ .

الآداب العامة، و رعاية الحقوق الأساسية بالمجتمع، ومتابعة مدى التزامهم بمقاييس الجودة في إنتاجهم، وكل ذلك يتم بالتنسيق مع الجهات ذات الاختصاص من وزارات ومؤسسات وغيرها.

*** ثالثًا: الحسبة في مصر قبيل العصر الفاطمي:**

كانت أعمال الحسبة في مصر في عصر الولاة(١٩هـ-٤١هـ/ ٩٤٠ -٦٦٢م) حتى العصر الطولوني(٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م) موجودة، ولكن كان يقوم بأعمالها الولاة، أو أصحاب الشرطة، أو عمال الخراج، أو القضاة، ويرى المؤرخون أن لفظ المحتسب لم يظهر عامة إلا في العصر العباسي في عهد الخليفة المهدي (١٥٨- ١٦٩هـ/٧٧٤- ٧٨٥م)، وأن هذا الخليفة كان أول من أنشأ هذا المنصب، وظل هذا المنصب باقيًا على عهد خلفائه، وليس هناك ما يثبت أن هذه الوظيفة امتدت إلى مصر في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد استمد العباسيون الأوائل كثيرا من النظم الإدارية من فجر العصر الأموي ثم طوروها(١).

* وفي عهد الدولة الطولونية شهدت مصر نهضة تجارية عالمية، ولم يكن المحتسب في هذا العصر موجودًا، ولم تكن الحسبة وظيفة مستقلة في عصر الطولونيين وإنما كان يقوم بأعمال الحسبة في هذا العصر القاضي أحيانًا، أو الوالي، أو صاحب المظالم أحيانًا أخرى إلي جانب قيامهم بمهامهم، فقد تولى أحمد بن طولون بنفسه إقرار العدل، والنظر في المظالم، وأعمال الحسبة بعدما حبس القاضي بكار بن قتيبة(ت٢٧٥هـ/٨٨٨م) بسبب مخالفة أوامره حينما

(١) سهام مصطفى أبو زيد: الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٦١ -٦٣، السيد الباز العربي: الحسبة والمحتسبون في مصر، الجمعية التاريخية المصرية، مجلد ٣، العدد الثاني ،١٣٦٩هـ/١٩٥٠م، ص١٦٠.

طلب منه لعن الموفَّق، فامتنع[١]، وفي عهد "أبى الجيش خمارويه" فوض أمر النظر في المظالم، والأحباس، والحسبة إلى القاضي "محمد بن عبده بن حرب" سنة ٢٧٧/ ٨٩٠م[٢].

وبعد سقوط الدولة الطولونية على يد قائد الجيش العباسي "محمد بن سليمان الكاتب" عادت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية مباشرة سنة (٢٩٢هـ/

(١) سبط ابن الجوزي: شمس الدين يوسف قزاوغلي حسام الدين بن فيروز البغدادي الدمشقي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ، تحقيق : جنان جليل محمد الهموندي ، الدار الوطنية ، بغداد،١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج١٦، ص٨٤، الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت ٧٤٨هـ /١٣٤٧م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عوّاد، نشر: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ج٦ ، ص٣٠٣، اليافعي: أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن سليمان اليافعي (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٧م) مرآة الزمان وعبرة اليقظان، وضع حواشيه: خليل المنصور، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٢، ص١٣٢، ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) : البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، نشر: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م، ج١١ ، ص٥٦، السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين(ت٩١١هـ /١٥٠٥م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر : دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط١ ،١٣٨٧هـ /١٩٦٧م، ج٢، ص١٤٤، سهام أبو زيد : الحسبة في مصر، ص٦٧ .

(٢) الكندي : محمد بن يوسف بن يعقوب المصري(ت بعد ٣٥٥هـ/٩٦٦م) : الولاة والقضاة ، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ،ط١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، ص١٧٥ ، ٣٤١ ، الذهبي: تاريخ الإسلام ، ج٧، ص٢٧٤، ابن تغري بردي : يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م):، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب ، مصر ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، ج٣ ، ص٥٢، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٤٤، سهام أبو زيد: الحسبة في مصر، ص٦٧ .

٩٠٥م) في عهد الخليفة العباسي المكتفي[١]، واستمرت تابعة للخلافة العباسية حتى قيام الدولة الإخشيدية (٣٢٣- ٣٥٨هـ/ ٩٣٥-٩٦٩م) ، وفي تلك الفترة كانت هناك محاولة لإرجاع الحكم الطولوني إلى مصر، كما أراد الفاطميون مد سلطانهم إلى مصر والمشرق بعد استيلائهم على المغرب ، وكانوا لا يعترفون للعباسيين بالخلافة، فبعد وفاة الخليفة "المكتفى" سنة(٢٩٥هـ/ ٩٠٧م) بويع "المقتدر "من بعده فأرسل جيشًا إلى مصر نجح في صد خطر الفاطميين بقيادة "مؤنس الخادم"، والذي أصبح من أخص المقربين إلى الخليفة، وكان أثناء إقامته في مصر له مطلق التصرف في أمورها، وكان مهتمًا بنقل العديد من النظم الإدارية التي كانت تطبق في بغداد ومن هذه النظم وظيفة الحسبة[٢]، ويكفينا دليلًا على ذلك تعيينه بعض كبار الموظفين على مصر في

(١) ابن الأثير: علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م): الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان، ط١ ،١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٦، ص٥٣٤، ابن سعيد المغربي: علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م): المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٣،١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، ص١٥١، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٤٠٢، المقريزي: أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ /١٩٩٧م، ج٢، ص١٣٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج٣، ص١١٠، سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الإخشيدين، جامعة فؤاد الأول، القاهرة ،١٣٧٠هـ/١٩٥٠م، ص١٧ -١٩ .

(٢) الطبري: محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م): تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ج١١، ص٥٢، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج١٦، ص٤١٤، الدواداري: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م): كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، وسعيد عبد الفتاح عاشور، وآخرون، عيسي البابي الحلبي، القاهرة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ج٥، ص٣٥٠ -٣٥٢، سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيدين، ص٣٠.

الكثير من المجالات، يخصنا منهم "محمد بن جعفر القرطي" الذي كان تاجراً في الساحل، فخدم في دار مؤنس عند قدومه، فقلده الحسبة بمصر ثم قلده الخراج بها سنة (٣٠٢هـ/٩١٤م)، ولعل هذه أول إشارة تدلنا على تنصيب محتسب مستقل بوظيفة الحسبة في مصر بمجيء "مؤنس الخادم"[١] .

* وفي عهد الدولة الإخشيدية على مصر (٣٢٣- ٣٥٨هـ/ ٩٣٥-٩٦٩م)، كان من المحتسبين الذين تولوا حسبة مصر في عهد الإخشيديين "محمد بن أحمد بن مَخْلَد البغدادي المحتسِب(ت٣٥٧هـ /٩٦٨م) [٢]، و"محمد بن جعفر بن سلام" والذي تشير بعض النصوص إلى أن بعض جيران سيبويه المصري ساءه ولاية ابن سلام هذا على الحسبة فشكاه إلى "سيبويه المصري" فركب معه إلى الوزير "أبي الفضل جعفر بن الفضل" فقال له يا أبا الفضل حفظك الله ورعاك، وصانك وأبقاك، وليت علينا محتسبا قليل الوفا كثير الجفا طويل القفا فإما أن كفيناه أو بدلته لنا بسواه[٣]، وهذا يدل على أن من سلطات الوزير تعين المحتسب وعزله ، كما يدل على الفساد الذي بدأ يمتد إلى تلك الوظيفة،

---

(١) إحسان عباس(ت١٤٢٤هـ/٢٠٠٢م): شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج١، ص٢٢٨ -٢٣٠، سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيدين، ص٢٢٩، سهام أبو زيد: الحسبة في مصر، ص٦٩.

(٢) محمد بن أحمد بن علي بن مَخْلَد، أبو عبد الله البغدادي الجوهري" المحتسِب المعروف بابن مُحْرِم الفقيه، من تلاميذ ابن جرير الطبري، سمع الحارث بن أبي أسامة، وإبراهيم بن الهيثم البلدي، ومحمد بن يوسف بن الطباع،، وعنه: ابن رزقويه، وابن داود الرزاز، وأبو علي بن شاذان، وآخرون. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٨، ص١١٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص٢٠.

(٣) الحسن بن زولاق: أخبار سيبويه المصري، نقله وكتب تراجمه: محمد إبراهيم سعيد، حسين الدبب، مطبعة النصر، مصر، ط١، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، ص٥٣، ٥٤ سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيدين، ص٢٢٩، ٢٣٠، سهام أبو زيد: الحسبة في مصر، ص٧١.

ويؤكد ذلك أيضا ما ذكر من أن "سيبويه المصري" كان راكبًا على حماره، ولقى المحتسب والحراس بين يديه فقال " ما هذه الأحراس يا أنجاس، والله ما ثم حق أقمتموه ولا سعر أصلحتموه ولا جان أدبتموه ، ولا ذو حسب وقرتموه، وما هي إلا أجراس تسمع لباطل يوضع، وأقفاه تصفع، وبراطيل تقطع، لا حفظ الله من جعلك محتسبا، ولا رحم لك أما ولا أبا [١] ، وهذا يعطينا صورة عما كانت عليه هذا الوظيفة في هذا الوقت من الفساد حيث استخدام الأعوان والمساعدين والحرس ،والإهمال في أداء الحقوق، وعدم مراقبة الأسواق، والتلاعب بها، وانتشار الفساد والبراطيل، وهذا الفساد يرجع إلي الأزمات الاقتصادية التي واجهتها الدولة والمجاعات، والاضطرابات التي واجهتها البلاد بعد وفاة كافور الإخشيدي، والذي أدى إلى تعدد الفتن والحروب الداخلية التي أدت إلى نهب الأسواق، وارتفاع الأسعار، وانتشار الفساد [٢].

(١) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصري، ص٢٩، سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيدين، ص٢٣٠.

(٢) سهام أبو زيد : الحسبة في مصر ، ص٧٢ .

المبحث الأول

دور المحتسب الإشرافي والرقابي

في خدمة البيئة الاقتصادية في العصر الفاطمي

توطئة: لمحة عامة عن الحسبة في العصر الفاطمي.

لقد اتضح اهتمام الخلفاء الفاطميين بمنصب الحسبة منذ بداية الخلافة، وذلك لأنها من ناحية التشريع قاعدة من قواعد الأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن حيث التطبيق من الوظائف الدينية الجليلة في الدولة، يكتب بها من ديوان الخلافة، ولذلك تعهدوها بأنفسهم حتى وصفوها بالحسبة الشريفة، وذلك باعتبارها وظيفة دينية، قضائية كبيرة الأهمية [١]، يتم اختيار متوليها بعناية فائقة، وكانت لا تسند إلا لكبار وجوه المسلمين وأعيان المعدلين لأنها خدمة دينية[٢]، وقد كانت تولية المحتسب تتم بمراسيم غاية في الفخامة تدل على ما كان لأرباب الوظائف الكبيرة في الدولة، فكان الخليفة يستدعيه بنفسه إلى القصر ليمنحه كتاب التولية، وكان يخرج من القصر في موكب ضخم

(١) القلقشندي : أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٩/١٩٨٩م، ج١، ص٤٣، ج٣، ص٢٩٨ .

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج١، ص٢٨٠، ٢٨١، المقريزي: الخطط،ج٢، ص٣٨٨. ويمكن القول بأن الخلفاء الفاطميين لم يتقيدوا بإسناد الحسبة إلى كبار المسلمين فحسب وإنما تولاها عدد ليس بالقليل من اليهود والنصارى أمثال: يعقوب بن كلس، وعسلوج بن الحسين اليهوديين، والوبرة النصراني، وأبا سعيد النصراني، وأبا نجدة النصراني، وغين النصراني، وسيأتي ذكرهم. المقريزي: اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشيال، نشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، القاهرة،ط١ ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م، ج١، ص١٤٦، ج١، ص٢٧٧، ج٢، ص٨٩، الخطط، ج١، ص١٥٦ .

يطوف به في الطرقات [١]، وكان على موظفي الدولة في ذلك الوقت تطبيق مباديء المذهب الشيعي كلٌ في دائرة اختصاصه ، ولذا كان على المحتسب أن يأمر بما دعا اليه المذهب الشيعي، وأن ينهي عن كل ما نهى عنه، ومن هنا نجد "جوهر الصقلي"[٢] يبادر بعزل المحتسب السني، وتولية محتسب شيعي يسمى "أبو جعفر الخرساني"[٣]، ثم عين "سليمان بن عزة"[٤] المحتسب[٥] وعلى ذلك أصبح عمل المحتسب الفاطمي ذا طابع خاص يختلف تمام الاختلاف عن عمل أي محتسب آخر، فعمل المحتسب في العصر الفاطمي كان لتحقيق أغراض مذهبية بحتة ،فالحسبة وظيفة ولكن الموظف كان لا يحكم إلا وفق المذهب الشيعي حتى ولو كان سنيًا ، وذلك بجعل المبادئ الشيعية جزءا من قواعد الحسبة ، وكان ذلك يتجلى في تطبيق

(١) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٨٨، عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٢٧٢هـ/١٩٥٣م، ص ١٦٣.

(٢) أبو الحسن جوهر بن عبد الله القائد المعزّى المعروف بالكاتب، مولى المعزّ لدين الله أبى تميم معدّ العبيدىّ الفاطمىّ. ولد في صقلية سنة(٣١٦ هـ/ ٩٢٨م) وتوفي في القاهرة سنة(٣٨١ هـ/٩٩٢م)، وكان خصيصا عند أستاذه المعزّ، وكان من كبار قوّاده؛ ثم جهّزه أستاذه المعزّ إلى أخذ مصر بعد موت الأستاذ كافور الإخشيدى؛ وأرسل معه العساكر ،وهو مؤسس مدينة القاهرة، وباني الجامع الأزهر ،ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٢٨.

(٣) أبو جعفر الخرساني محتسب شيعي تولى ديوان الحسبة زمن الفاطميين سنة (٣٥٨هـ/٩٦٨م)، بعد عزل المحتسب السني. المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج١، ص١٢٠.

(٤) سليمان بن عزة: رجل من المغاربة تولى ديوان الحسبة زمن الفاطميين سنة (٣٥٩هـ/ ٩٦٩م): وكان ديوان المحتسب في زمنه متصلا بديوان القاضي، وقام بالحسبة خير قيام، المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج١،ص١٢٠، أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية ،ط ١، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ٨٠ .

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج١، ص١٢٠.

المحتسب للأوامر والقوانين والمراسيم الشيعية في مختلف المجالات التي تقع تحت اختصاصه[١] .

* وقد أولى الفاطميون اهتمامًا كبيرًا بهذه الوظيفة، وأصبحت الحسبة في مكان منفرد تعرف به[٢]، ففيي عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله تولى أمر الحسبة "يعقوب بن كلس" [٣] وقام بهذه المهمة خير قيام، فزادت مواد الدولة المالية في عهده، كما قام "عسلوج اليهودي" [٤] بالنظر في الحسبة مع

(١) سهام أبو زيد، الحسبة في مصر، ص٧٣.

(٢) حيث أصبح مكان الحسبة في العصر الفاطمي في المكان المعروف بالإبزاريين، حيث كان بجوار حبس المعونة دكة الحسبة وأخبرنا المقريزي أن مكانها في عصره كان يعرف بالأبارزة مكسر الحطب بجوار سوق القصارين والفحامين. المقريزي: الخطط،ج٢، ص٢٠٨، ٣٨٨ .

(٣) يعقوب بن كلس: أبو فرج يعقوب بن ابراهيم بن هارون بن داود بن كلس البغدادي، وزير المعز لدين الله الفاطمي والعزيز ، كان يهوديًا، فأسلم وكان داهية ماكرًا جيّد العقل، حسن السياسة، كبير الهمّة، خبيرًا بتدبير المملكة، فطنًا، سائسًا من رجال العلم، قلده المعز لدين الله الخراج، وجميع وجوه الأموال، والحسبة، والأحباس، والمواريث، والشرطتين، وجميع ما يضاف إلى ذلك، وما يطرأ في مصر، وسائر الأعمال سنة(٣٦٣ هـ/ ٩٧٤م)، هو وعسلوج اليهودي ، وكتب لهما سجلا بذلك قرىء في يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون. المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٠، النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الدائم القرشي التيمي (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، نشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣مـ ،ج٢٨ ، ص١٦٥ ، ١٦٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص٥١ .

(٤) عسلوج بن الحسين اليهودي: قلده المعز لدين الله الخراج، وجميع وجوه الأموال، والحسبة، والسواحل، والأعشار، والجوالي، والأحباس، والمواريث، والشرطتين، وجميع ما يضاف إلى ذلك، وما يطرأ في مصر، وسائر الأعمال سنة(٣٦٣هـ/ ٩٧٤م)، هو ويعقوب بن كلس ، وكتب لهما سجلا بذلك قرىء في يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون. المقريزي: الخطط ، ج٣ ، ص١٠ .

"يعقوب بن كلس" زمن "المعز لدين الله"(٣٤١- ٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٦٦م) ، وفي زمن الخليفة الفاطمي "العزيز بالله"(٣٦٥-٣٨٦هـ/ ٩٧٥-٩٩٦م) تولى أمر الحسبة رجل يقال له "الوبرة النصراني" [١]، كما تولاها "الحاكم بأمر الله" (٣٨٦ -٤١١هـ/٩٩٦ - ١٠٢٠م) بنفسه سنة (٣٨٦هـ/٩٩٦م) وولاها غيره- كما سيأتي ذكرهم بعد – حرصًا منه على المحافظة على البيئة ومكافحة الرذائل الاجتماعية[٢] .

ويمكن القول بأن تكليف عدد من اليهود والنصارى لمهمة تولي وظيفة المحتسب بالرغم من أن ذلك يخالف أهم شروط اختيار المحتسب، وهو أن يكون مسلمًا، إلا إن الدولة الفاطمية لم تتعامل بهذه الشروط، فتكليف اليهود والنصارى بتولي مهمة المحتسب جاء لعدة أسباب منها: أن الفاطميين كان خلال حكم الخليفة الحاكم يرفعون شعار التشدد في التعامل مع أهل الذمة، ثم بعد ذلك رفعوا شعار الاعتدال في التعامل معهم، وكذلك لكفاءة بعض هذه الشخصيات، وقدرة البعض منهم على إدارة مؤسسة الحسبة بكفاءة عالية [٣] .

ان المحتسب في العصر الفاطمي كان يمثل الحكومة، وهو المسؤول عن الإشراف على الأسواق لمراجعة الأسعار، والمكاييل، والأوزان، ويتولى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولما لم تدخل الإحاطة بأفعال السوقة تحت

---

(١) الويرة النصراني: أبو زكريا بن الوبرة النصراني الكاتب، ولاه العزيز في محرم سنة(٣٨٣هـ/ ٩٩٣م) الحسبة ضمانًا مع السواحل، مات سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج١، ص ٢٧٧، ابن دقماق: ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي (ت ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦م)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، المكتب التجاري، بيروت، د.ت، ج١، ص ٢٤.

(٢) الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٢، ص٢٢٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٨٤، السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٦٠٢ .

(٣) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ١٠٠ – ١٠٤.

وسع المحتسب، جاز له أن يجعل لأهل كل صنعة عريفًا من صالح أهلها، خبيرًا بصناعتهم، بصيرًا بغشوشهم، وتدليساتهم، مشهورًا بالثقة، والأمانة، يكون مشرفًا على أحوالهم، ويطالعه بأخبارهم، وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع، وما تستقر عليه من الأسعار، وغير ذلك من الأسباب التي يلزم المحتسب معرفتها، فالعريف وكيل، أو ممثل المحتسب لدى الطوائف والمهن، أكثر من كونه شخصًا مختارًا من أصحاب المهن ليدافع عن مصالحهم لدى السلطة [١] .

وقد امتلك المحتسب في العصر الفاطمي صلاحيات واسعة تضمنت أنوعًا من العقاب، يبدأ بالتوبيخ، والضرب بالسوط، أو بالدرة، ويختلف نوع العقوبة حسب كبر الذنب أو صغره، كما امتلك عقوبة التعزير، أو التشهير، وذلك ليكون عبرة لمن يفكر بارتكاب المخالفات بعد ذلك [٢].

(١) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٢، ابن بسام: محمد بن أحمد ابن بسام المحتسب (ت حوالي ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق:محمد حسن محمد حسن إسماعيل، أحمد فريد المزيدي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣ م ، ص١٧ ، ١٨ .

(٢) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص١٠٩ ، ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،ص٢٠٩ .

دور المحتسب الإشرافي والرقابي
في خدمة البيئة الاقتصادية في العصر الفاطمي

لقد استقرت وظيفة المحتسب في العصر الفاطمي وكان الدور الرئيس الذي أنيط به المحتسب هو مراعاة حقوق الناس، فكان يقوم بالإشراف ومراقبة أهل الأسوق من التجار، والباعة القائمين بها، والباعة الجائلين، يشرف عليهم، ويتفقد أحوالهم، والناظر في سجلات تولية الفاطميين للمحتسبين كالذي أورده القلقشندي في كتابه يجد أن من أهم أعماله مراعاة مصالح الرعايا، وإقامة الحدود، والمحافظة على الحقوق، وعدم تمكين ذوي البيوع من أن يغبنوا ضعفاء الرعايا، وعدم السماح لهم في أن يرفعوا أسعارهم، أو أن يبخسوا الناس أشياءهم، وحمل كلّا منهم على المعاملات الصحيحة، والعقود التي غدت لها الشريعة الشريفة مبيحة، ويجنّبهم العقود الفاسدة [١].

وقد بينت لنا كتب الحسبة التي عاصر أصحابها الدولة الفاطمية كالشيزري قاضي طبرية ومحتسبها والذي عاش في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في كتابه "نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة" و قد ألف كتابه هذا بناء على طلب من صلاح الدين الأيوبي من طريق غير مباشر لمساعدة الدولة الأيوبية في مراقبة أرباب الحرف والصنائع لما كان معروفًا من ميولهم للدولة الفاطمية[٢]، أو التي تولى مؤلفوها وظيفة الحسبة بمصر كابن بسام المحتسب التنيسي الذي عاش في الربع الأخير من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في كتابه "نهاية الرتبة في طلب الحسبة"، أو تناول مؤلفوها الحديث عن العصر الفاطمي كابن الأخوة في كتابه "معالم القربة في طلب الحسبة"، وغيرها من المصادر الأخرى صورة الحياة اليومية في مصر في العصر الفاطمي فوصفت لنا أسواقها، وحركة التعامل بها، وما

(١) ينظر سجل التولية كاملا. صبح الأعشى، ج١١، مص٢٠٨ – ٢١٠.

(٢) الشيرزي: نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة، المقدمة، ص ى، ك.

يقع فيها من منكرات، يسارع المحتسب بدوره إلى إزالتها، كما وضحت حياة الأفراد والجماعات، وشرحت وسائل الكسب والمعيشة اليومية، وهذه المصادر تشهد بأهمية الدور الاقتصادي والصحي والاجتماعي للمحتسب في ذلك العصر، فلقد كان من السمات الخاصة التي تميزت بها مصر في العصر الفاطمي الانتعاش الاقتصادي، والرخاء الذي امتازت به مدنها، والذي جعلها مركزًا اقتصاديًا لدولة واسعة الأرجاء، كما شهدت بذلك كتب الرحالة والجغرافيين فقد لاحظ الرحالة "ناصر خسرو" والذي زار القاهرة في السابع من صفر سنة (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م)، وأقام فيها إلى يوم الثلاثاء ١٤ ذي الحجة (٤٤١هـ/١٠٤٩م)، في عهد الخليفة الفاطمي الثامن "المستنصر بالله "(ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) ، وذكر ما شاهده في العصر الفاطمي، ومنها أن التجار في مصر كانوا على درجة كبيرة من الصدق، وكانوا يبيعون بأثمان محددة، وإذا ثبت على أحدهم الغش فإنه يعاقب بطريقة التشهير فيقول " .... وتجار مصر يصدقون في كل ما يبيعونه، وإذا كذب أحدهم على مشتر فإنه يوضع على جمل ويعطى جرسا بيده ويطوف به في المدينة وهو يدق الجرس وينادي قائلا" قد كذبت وها أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب"[١]، كما وصف أسواق مصر بأنها كثيرة ومحكمة وأنه يصعب حصرها، فيقول وهو يبدي عجبه في سياق وصفه لهذه الأسواق، وما يرد إليها من البضائع " وفيها أسواق كثيرة ورأيت فيها سوقا من أسواق الصرافين كان بها مائتا صراف ولكل سوق سور وبوابة محكمة"[٢]، ثم نراه يصف لنا صناعات مصر الدقيقة وصفا شائقا، ويشيد بما بلغته هذه الصناعات من رقي، ويتحدث عن رخص أسعار بعض السلع، ثم يصف القاهرة وشوارعها وأسواقها ومدى ما بلغته من نهضة

(١) أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم القبادياني المروزي (ت٤٨١هـ/١٠٨٨م) : سفر نامه ، تحقيق: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ١٠٥.

(٢) سفرنامه، ص ١٥٤ .

اقتصادية [١]، ومما يدل على انتعاش الحياة الاقتصادية في مصر أيضًا: ظهور أسماء اقتصادية كثيرة تدل على رواج التجارة والصناعة مثل دكاكين، وحوانيت، وقياسر، وخانات، ووكالات، وأسواق يرجع تاريخ بعضها إلى ما قبل عصر الفاطميين ومنها من ظهرت مبانيها أول مرة في تاريخهم كالوكالات[٢].

* ولقد كان دور المحتسب الفاطمي الاقتصادي يتجلى في ذهابه بنفسه أو أعوانه إلى الأسواق، وتفتيشه على بضائع التجار من حيث الرداءة والجودة، ومنعه لهم من الغش والتطفيف في الكيل والميزان، وإلزامهم البيع والشراء بالسعر المحدد، كما يتضح دوره الاقتصادي أيضًا في دعائه للتجار للحضور إلى دار العيار لختم المكاييل والموازين والصنج الخاصة بهم بخاتمه الموحد[٣].

ولتلك الأهمية الكبيرة لحركة البيوع والشراء ولكونها أحد الركائز المهمة في بناء الاقتصاد في المجتمع الفاطمي، فقد كان على المحتسب أن يدقق في كل ما يمكنه أن يضبط الأسواق بنظام دقيق، لمنع التلاعب بالموازين أو الأسعار أو غش البضائع والتدليس فيها، وفق ضوابط صارمة وقوانين حضارية ومتطورة [٤] تجاه دار العيار والموازين والمكاييل الخاصة بها، لأجل الحسبة على التجار والباعة وأصحاب الحرف والصنائع وغيرهم من أرباب السوق على اختلاف أنماطهم الذين وضعت كتب الحسبة في شأنهم لتعيين المحتسب على ضبط عملهم ومعرفة أساليبهم حتى يلزمهم بحسن البيع وإتقان الصنعة وعدم الغش في السلعة أو في الميزان .

فقد كان للحسبة والمحتسبين في سوق المدينة دار خاصة بهما أنشئت علي عهد الفاطميين تسمى دار العيارين هدفها فحص الموازين والمكاييل،

---

(١) سفر نامه ، ص٦٠ .

(٢) المقريزي : الخطط ، ج٢ ، ص٣٢١، ٣٢٢.

(٣) المقريزي : الخطط ،ج١ ، ص٣٨٨ ،٣٨٩ ، ٤٦٤ .

(٤) سهام أبو زيد : الحسبة في مصر ، ص١٧٦ ، ١٧٧ .

والتأكد من سلامتها، وكان ينفق على هذه الدار من الديوان السلطانيّ، فكان المحتسب يطلب من يريد من التجار والباعة، ويكلفه بإحضار موازينه ومكاييله ليتم فحصها ، فإذا وجد فيها خللا ألزم صاحبها باستبدالها، ثم سمح للتجار في العصر الفاطمي أن يقوموا بإصلاح موازينهم في دار العيار على أن يتحملوا نفقة إصلاحها ومقابلتها بالموازين والمكاييل الصحيحة الموجودة في الدار[١]، وبعد عام (٣٨٣هـ/ ٩٩٣م) منع الفاطميون المحتسب إن يأخذ أجرة على إصلاح الموازين ومعايرتها في دار العيار[٢]، وكان المحتسب يلزم التجار باتخاذ الأرطال والأواقي وأدوات الوزن الأخرى من الحديد حتى لا يكون من السهل تغييرها أو التلاعب بها، ولا يتخذها من الحجارة لأنها تتحت إذا قرع بعضها بعض فتنقص فإذا دعت الحاجة إلى اتخاذها من الحجارة لقصور يده عن اتخاذها من الحديد أمره المحتسب بتجليدها ثم يختمها المحتسب بعد العيار، ويجدد المحتسب النظر فيها بعد كل حين لئلا يتخذ البائع مثلها من الخشب أو نحو ذلك [٣]، وقد بقيت هذه الدار طوال العصر الفاطمي ، وفي عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله(٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٦٦م)، تولى أمر الحسبة يعقوب بن كلس فقام بهذه المهمة خير قيام، فزادت مواد الدولة المالية في عهده [٤]، وكان للقاضي الإشراف على دار الضرب أيام الخليفة الفاطمي،

(١) ابن مماتي : أبو المكارم الأسعد بن المُهذَّب بن مينا بن زكريا بن مَمّاتي الأيوبي(٦٠٦هـ/١٢٠٩م): قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطيه، مطبعة مصر، الإسكندرية، د.ط، ١٣٦٥هـ/١٩٤٣م، ص٣٣٣، ٣٣٤، المقريزي: الخطط ، ج٢، ص٣٨٨، سهام أبو زيد: الحسبة في مصر، ص٧٦ .

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٣٨٩.

(٣) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٩، ابن الاخوة، معالم القربة في طلب الحسبة، ص ١٤٥.

(٤) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٨٩، ج٣، ص٣٩٤، فينوس ميثم علي: دراسة مقارنة بين الحسبة في العصر العباسي والعصر الفاطمي في بلاد الشام، الجامعة المستنصرية، كلية التربية الأساسية، مجلة مداد الآداب، العدد١٩، ص ٤١٧-٤٢٠.

لا يتولاها إلا قاضي القضاة تعظيما لشأنها وتكتب في عهده ضمن ما يضاف إلى وظيفته وكان يقيم لمباشرتها من يختاره من نواب الحكم، وبقي الأمر على ذلك زمنا بعد الدولة الفاطمية(١).

* كما كان ضمن أعمال المحتسب في العصر الفاطمي ضبط المعاملات داخل الأسواق، فقد كان عليه أن يمنع التجار من احتكار السلع، فإذا وجد شخصا اشترى طعاما أو سلعة وقت الرخاء بهدف احتكارها وبيعها وقت الغلاء ألزمه ببيعها بأثمان محددة (٢)، وقد تعرضت مصر في العصر الفاطمي للعديد من المحن الشديدة (٣) التي أدت إلى ارتفاع الأسعار واحتكار السلع، فكانت سياسة الدولة الفاطمية تقوم على منع الاحتكار عن طريق مراقبة الأسواق ومعاقبة المحتكرين، وجمع سماسرة الغلات في مكان واحد، وإلزامهم ألا تباع الغلات إلا هناك، فيكون لها طريق واحد لا يخرج منه قدح واحد من القمح إلا بإذن المحتسب، وتحت إشراف دقيق منه، ومن أعوانه، وتنظيم بيع الغلال بالسعر المحدد، وكانت الحكومة الفاطمية تهدد التجار بأشد العقوبات عند اختفاء الغلال وارتفاع أثمانها إذا لم يخرجوها للناس، وكان المحتسب ينفذ تعليمات الحكومة وكان له نشاط كبير في مراقبة الأسواق، فقد ذكر المقريزي أن شخصا يدعى "الحسين بن عبد العزيز" قد تولى حسبة مصر سنة(٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، وأنه كان محتسبًا قديرًا، وموضع ثقة الحكومة، حيث عهد إليه الإشراف على أسواق مدينة القاهرة (٤)، كما حدثنا المقريزي عن

(١) القلقشندي: صبح الأعشي، ج٣، ص٥٣٤، المقريزي: الخطط، ج١، ص٢٠٦، عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين(٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٨-١١٧١م)، دار الفكر العربي، مصر، ط١، ١٣٦٧هـ/١٨٤٨م، ص٣٠١.

(٢) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٢.

(٣) كان من هذه المحن سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، وسنة ٣٩٨هـ/١٠٠٨م، وسنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م، ينظر ذلك بالتفصيل المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٨، ٧١، ١١٥.

(٤) المقريزي: الخطط، ص٤٨٦. ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٥٤ .

غلاء سنة(٣٥٩هـ/ ٩٧٠م) قائلا "وفي سلخ ربيع الآخر زاد الغلاء، ونزعت الأسعار؛ وتوفي "أبو جعفر المحتسب"، فرد جوهر أمر الحسبة إلى "سليمان بن عزة"، فضبط الساحل، وجمع القماحين في موضع واحد؛ ولم يدع كف قمح يجمع إلا بحضرته؛ وضرب أحد عشر رجلا من الطحانين وطيف بهم"[١] وكان من أشد المحن التي تعرضت لها مصر سنة (٤٦١هـ/ ١٠٥٩م)، وقد وصفها المقريزي بقوله "وفيها عظم الغلاء بمصر واشتد جوع الناس لقلة الأقوات في الأعمال وكثرة الفساد، وأكل الناس الجيفة والميتات، ووقفوا في الطرقات فقتلوا من ظفروا به؛ وبيعت البيضة من بيض الدجاج بعشرة قراريط، وبلغت رواية الماء دينارا..... وبيع رغيف من الخبز زنته رطل في زقاق القناديل كما تباع التحف والطرق في النداء: خراج! خراج! فبلغ أربعة عشر درهما؛ وبيع أردب قمح بثمانين دينارا. ثم عدم ذلك كله، وأكلت الكلاب والقطط، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير. وبيعت حارة بأكملها بطبق خبز، حسابا عن كل دار رغيف، فعرفت تلك الحارة بعد ذلك بحارة طبق، وما زالت تعرف بذلك حتى دثرت فيما دثر من خطط مصر، وأكل الناس نحاتة النخل؛ ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا" [٢]، ومنها سنة(٥٣٦هـ/ ١١٤٢م)، وقد وصفه المقريزي بقوله " في شعبان غلت الأسعار وعدم القمح والشعير، فبلغ القمح كل إردب إلى تسعين درهما والدقيق إلى مائة وخمسين للحملة، والخبز إلى ثلاثة أرطال بدرهم، والوبية من الشعير إلى سبعة دراهم، والزيت الطيب إلى سبعة دراهم للرطل، والجبن إلى درهمين للرطل والبيض إلى عشرين درهماً للمائة، والزيت الحار إلى درهم ونصف للرطل، والقلقاس كل رطلين بدرهم؛ وعدم الفرخ والدجاج فلم يقدر على شيء منه وعم الوباء، وكثر الموتان [٣]،فكان من واجب المحتسب الفاطمي أن ينفذ أحكام الدين، وأوامر

(١) اتعاظ الحنفاء، ج١، ص١٢٠.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٢٩٦، ٢٩٧ .

(٣) اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص١٧٦.

السلطان في المعاملات التجارية والصناعية تنفيذا دقيقا، فمن كان يغش الناس في المطاعم والمشارب وغيرها يركبه جملا ويضع في يديه جرسا ويطوف به البلد ويجعله يصيح بأعلى صوته لقد كذبت وها أنا ذا ألقي جزاء كذبي(١).

* ويهمنا هنا الحديث عن النشاط التجاري والصناعي في الداخل لا غير، والذي يشمل حركة البيع والشراء، ونشاط الأسواق، فقد اختص كل سوق بنوع معين من البضائع، فكانت هذه الأسواق بمثابة مراكز للنشاط الاقتصادي، وكان يتجلى دور المحتسب الفاطمي في إشرافه اشرافًا دقيقًا على أصحاب الحرف والمهن، فنراه يذهب إلى الأسواق، ويقوم بالتفتيش على بضائع التجار من حيث الجودة والرداءة، ويمنعهم من الغش والتطفيف في الكيل والميزان، ويلزمهم بالبيع والشراء بالسعر المحدد(٢)، فكان المحتسب يزن الخبز ويحدد سعره، لأن الخبز معلوم الأوزان محدد السعر(٣).

وكان يأمر طاحني القمح أن يكون عندهم ميزان من خشب حتى يأخذوا القمح التي تطحن بالوزن، وترد إليهم بالوزن من غير نقص، مع كتابة اسم صاحبها ووزنه على أذن كل قفة في لوح صغير، فإذا صح الوزن زالت التهمة وارتفع الشك، حتى لا تختلط بغيرها، وتكون الحجارة التي يوزن بها مجلدة معيرة مختومة بالرصاص، ويشترط على المتاجرين من الطحانين اعتدال موازين الحجارة؛ لأنها إذا رفعت خفت على الدواب وجرشت الدقيق، وإذا وضعت سحقت وأضرت بالدواب، وإنما يكون الميزان معتدلاً حتى لا يقع الضرر، ويصرح حال الدواب، ويطيب الدقيق من غير حيف على الجهتين، ويباشر ذلك كله عريف ثقة يعينه عليهم(٤)، ويأمر المحتسب شوائي اللحم بوزنه قبل

(١) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٥٤.

(٢) المقريزي : الخطط ، ج٢ ، ص٢٠٨ ، ٢٢٦، سهام أبو زيد : الحسبة في مصر، ص١٦٥، ١٦٦.

(٣) الشيرزي : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص٢١، ٢٢ .

(٤) ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٥٩ .

إنزاله الفرن ويكتبها في دفتره، ثم يعيدها إلى الوزن بعد إخراجها، فإن كان الشواء قد نقص منه الثلث فقد تناهى نضجه، وإن كان دون ذلك أعاده إلى التنور، ويعتبره عند وزنه وهو لحم، لئلا يخفوا فيه صنج الحديد، أو مثاقيل الرصاص وعلامة نضج الشواء: أن يجذب الكتف بسرعة، فإن جاءت فقد انتهى في النضج، وأيضا يشق الورك، فإن ظهر فيها عروق حمر، ونزل منها ماء اللحم، فهو نيء ولم ينضج(١)، كما عليه أن يراجع عيار الهريسة بأن لكل صاع من القمح ثماني أواق من لحم الضأن، ورطل من لحم البقر، ويراعي أن يكون لحم الهريسة سمينًا فتيًا، نقيًا من الدرن والغدد، والعروق، والأعصاب، طريًا غير غث، ولا متغير الرائحة، وينبغي أن يجعل في الماء والملح ساعة، حتى يخرج ما في بطنه من الدم، ثم يخرج، ويغسل بماء غير ذلك، ثم ينزل في القدر بحضرة العريف، ثم يختم بخاتم المحتسب لأن بعضهم كان يقوم بغشه بالقلقاس المدبر، ومنهم من يبتاع الروس المغمومة عند كسادها رخيصة، ثم ينسل لحمها في الهريسة وربما بقي عندهم في القدور فضلة، فخلطوها في الهريسة من الغد، فيراعي المحتسب جميع ذلك بالختم(٢)، كما كان على المحتسب أن يلزم النقائقيون ألا يخلطو كميات اللحم مع البصل والتوابل إلا في حضوره، وذلك ليعلم مقدار الوزن وعدم الغش، لأن غشهم فيها كثير، ويأمرهم بتنقية اللحم، وجودته، ويراعي أن يكون من لحم الضأن، فإن منهم من يغشها بلحوم المعز، ومنهم من يغشها بلحوم الإبل، ومنهم من يغشها باللحوم الواقعة الهزيلة وغير ذلك وأن يدق على القرم النظيفة، وألا يخلطوا مع اللحم على القرمة الشحم، ولا شيئا من بطون البهيمة، ولا يخلطوا معه شيئًا من السميذ، ولا الفلفل، ولا شيئا من الأدهان إلا بحضور المحتسب، أو نائبه، أو

(١) الشيرزي : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،ص٣٠ ، ابن الأخوة : معالم القربة في طلب الحسبة ، ص١٥٦.

(٢) الشيرزي : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،ص٣٦ ، ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص٣٩ .

أمين يثق به المحتسب في ذلك، ثم يحشونه بعد ذلك في المصارين النقية المغسولة بالماء، والملح[١]، كما ينبغي عليه أن يمنع من غش الحلوى بالدقيق، والنشا، وبدقيق الأرز، وبدقيق العدس، وبقشر السمسم ، وعلامة غشه أنه يطفو على وجه الماء إذا طرح فيه، ومنهم من يغش النوبية بالدقيق، وجميع غشوش الحلاوة لا تخفى في منظرها، وذوقها، فيعتبر عليهم المحتسب جميع ذلك [٢] كما كان على المحتسب أن يشرف على موازين ومكاييل الباقلانيين (الفوّالين) فيعين عليهم عريفًا ثقة عارفًا بمعيشتهم، ويأمره أن يمنعهم من عمل الباقلاء المسوس، ويتفقد مكاييلهم فإنهم يأخذون قطعة خشب يحفرونها مكيالًا، فيكون مثاله طول شبر، والمحفور من داخلها أربعة أصابع فيغتر الناس بسعتها وطولها، ولا يعلمون ما المقدار المحفور منها، وهذا تدليس ظاهر لا يخفى، وكذلك تجار الترمس، ينبغي عليه أن يتعاهد موازينهم، وصنجهم، ومكاييلهم، فإن صنجهم قد تتكاثف عليها الأوساخ، ومكاييلهم قد يصبوا فيها الجبس في أسفلها، فيعتبر عليهم ذلك في سائر الأوقات، وربما كان معهم أقداح صغار ليس لها عيار، يدعون أنهم يكتالون بها للصغار، وهي مما لا يقع عليها مقدار ولا تحديد، فيمنعون، من ذلك وتكسر[٣] ،كما يجب عليه أن لا يمكن أحدا من بيع العقاقير وأصناف العطر إلا من له معرفة وخبرة وتجربة، ويشترط أن يكون ثقة أمينًا في دينه عنده خوف من الله تعالى، فإن العقاقير إنما تشترى من العطارين مفردة ثم تركب غالبًا، وهؤلاء قوم شغلهم أوسع الأشغال، وأمورهم مختلفة الأحوال، والكشف عنهم صعب المرام، وغش مفسديهم لا يكاد يحصر ولا يرام، وذلك أن الغش عندهم إذا لم يزد على الثلث لم يستطع أحد إخراجه ولا الوقوف على الصحة فيه، ويتساوي الناس في معرفة

(١) الشيرزي : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،ص٣٨ ، ابن الأخوة : معالم القربة في طلب الحسبة ، ص١٥٨

(٢) الشيرزي : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،ص٤١ .

(٣) ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص٥١ ، ٥٢ .

ظاهر الأشياء بدخول أكثرهم فيها وليسوا من أهلها ولا من ذوي الخبرة بها، فصار المفسدون لا يلوون على أحد، ولا يقفون في سبيلهم على حد، وشأن المحتسب في هذا أن يقدم عليهم في سوقهم من تعلم ثقته ودينه ومعرفته وبصره بالعقار وتمييزه له، وكذلك ثقات التجار المتجولين في البلاد والأطباء العارفين[١]، كما عليه ألا يُمَكَّن من يتجر في البز إلا من عرف أحكام البيع، وعقود المعاملات، وما يحل له منها، وما يحرم عليه، وإلا وقع في الشبهات، وارتكب المحظورات، فينبغي على المحتسب أن يعين عليهم عريفًا، يمنعهم من أن يزيد التاجر في السلعة أكثر مما تساوي، أو يبيع بيعا مخالفا للشريعة كالبيع إلى أجل مجهول، أو البيع على شرط مستقبل مجهول، أو بيع الملامسة، وهو أن يقول البائع للمشتري: " إذا لمست الثوب بيدك ولم تشتره لزمك البيع"، أو بيع المنابذة، وهو أن يقول البائع للمشتري: "بعتك هذا الثوب الذي معي بالثوب الذي معك "، فإذا نبذ كل واحد منهما ثوبه إلى الآخر فقد وجب البيع، فعلى المحتسب أن يعتبر عليهم جميع ما ذكرناه، وينهاهم عن فعل ذلك، ويتفقد موازينهم وأذرعتهم؛ ويمنعهم من شركة المنادي والدلال، ويراعي حسن معاملتهم مع المشترين وجلابي البضائع، وصدق القول في جميع الأحوال [٢]، ويأمر الحاكة والخياطين بأن يأخذوا غزل الناس بالوزن فإذا خاطه رده إلى صاحبه بذلك الوزن، ويعتبر المحتسب عليهم ما يسرقونه من أمتعة الناس، فمنهم من إذا خاط ثوبًا حريرًا ونحوه حشاه وقت كفه رملًا أو بخ داخلها بماء وملح إذا كانت ممن لا يتبين بياضه، ويسرق بقدره من الثوب إذا

(١) السقطي المالقي: محمد بن أبي محمد السقطي الأندلسي(ت٥٠٠هـ/١١٠٧م) : آداب الحسبة، تحقيق: ليفي بروفنسال – كولان، نشر: مطبعة إرنست لورو – باريس، ١٣٤٩هـ/١٩٣١م ، ص٤١– ٤٣، الشيرزي : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٤٨– ٥٢، ابن الأخوة : معالم القربة في طلب الحسبة ، ص١٩٩– ٢٠٦.

(٢) الشيرزي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦١ ،٦٢، ابن الأخوة: معالم القربة في طلب الحسبة، ص٢١١، ٢١٢.

كان موزونا عليه، كما يأمرهم بترك المطل للناس، وأن لا يأخذ أحد شغلاً وهو غير فارغ، إلا أن يشترط على صاحبه مدة فراغه، ومن خالف أدب [١] ، كذلك يمنع القطانين الذين يبيعون القطن، ألا يخلطوا جديد القطن بقديمه، ولا أحمره بأبيضه، وينبغي أن يندف القطن ندفًا مكررًا حتى تطير منه القشرة السوداء، أو الحب المكسر؛ لأنه إذا بقي فيه الحب ظهر في وزنه، وإذا طرحه في جبة أو لحاف فغسلت، ودقت قرضت الجبة، وأضر بملابس الناس، ومنهم من يندف القطن الرديء الأحمر، ويجعله في أسفل المكبة، ثم يعمل فوقه القطن الأبيض النقي فلا يظهر إلا عند غسله [٢]، ويعين للصاغة عريفا عليهم خبيرًا بصناعتهم بصيرًا بغشوشهم، ويمنعهم أن تكون أكوار السبك معلقة مرتفعة، بل تكون في قصارى مبنية على وجه الأرض، حتى لا يخفى فيها ما يسبك عن صاحبه من ذهب، أو فضة، وإن باع شيئا من الحلي المغشوشة لزمه أن يعرف المشتري مقدار ما فيها من الغش، ليدخل على بصيرة، وإذا أراد صياغة شيء من الحلي لأحد، فلا يسبكه في الكور إلا بحضرة صاحبه، بعد تحقيق وزنه، فإذا فرغ من سبكه أعاد الوزن، وإن احتاج إلى لحام فإنه يزنه قبل إدخاله فيه، ولا يركب شيئا من الفصوص والجواهر على الخواتم والحلي إلا بعد وزنها بحضرة صاحبها، لإن تدليس الصاغة وغشوشهم خفية لا تكاد تعرف، ولا يصدهم عن ذلك إلا أمانتهم ودينهم [٣]، وقد قام "الحاكم بأمر الله"

(١) الشيرزي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٧، ابن الأخوة: معالم القربة في طلب الحسبة، ص٢١٨.

(٢) الشيرزي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٩، ابن الأخوة: معالم القربة في طلب الحسبة، ص٢٢٥.

(٣)الشيرزي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٧٧، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٠٦، ١٠٧.

بهذا الأمر بنفسه سنة (٣٨٦هـ/٩٩٦م)[١]، وقلده من بعده لرجال إدارة أكفاء تولوا إدارة هذه المؤسسة المهمة في الدولة كان منهم "أبو سعيد النصراني" [٢] ، و"أبو نجدة النصراني" [٣] كما قام "الحاكم بأمر الله" بتقليد خادمه "غين النصراني" الحسبة[٤]، وظل عليها حتى مرض، فتولاها "الحاكم" بنفسه مرة أخرى هى والشرطة وكان يقوم بالنظر في جميع الأموال، والأحوال بمعاونة العرفاء [٥] .

وإشراف المحتسب على هذه الفروع من الأنشطة الاقتصادية "وتجارية وصناعية" إنما هو واجب ديني أولًا، ثم اقتصادي واجتماعي ثانيًا، الغرض الرئيس منه هو المحافظة على البيئة وحماية المجتمع، فكان المسئولون يهيئون له جو هذا الإشراف بالمساعدة من جانبهم أحيانا، وبالسماح له باختيار الأعوان والنواب والمساعدين أحيانا أخرى، بحيث إنه لا يحال بينه وبين

---

(١) الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت ٧٤٨هـ /١٣٤٧م) : العبر في خبر من غبر، تحقيق : محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م، ج٢، ص٢٢٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٨٤، السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين(ت٩١١هـ /١٥٠٥م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق : محمد إبراهيم، نشر : دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر ، ط١ ،١٣٨٧هـ /١٩٦٧م ، ج١، ص٦٠٢ .

(٢) قلده الحاكم بأمر الله الحسبة ومراقبة الأسواق سنة (٣٨٨هـ/ 998م). المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص١٧.

(٣) كان بقالًا فترقت أحواله حتى ولى الحسبة سنة ٣٩١ هـ/ ١٠٠٠ م ، ودخل فيما لا يليق به، وأساء في معاملة الناس، فاعتقل . المقريزي، اتعاظ الحنفاء ، ج ٢ ،ص ٤٣ .

(٤) غين الخادم الأسود: أحد خدام الخليفة الحاكم بأمر الله، خلع عليه في سنة اثنتين وأربعمائة، وقلده سيفا وأعطاه سجلًا قرىء، فإذا فيه أنه لقب بقائد القوّاد، تولى الشرطة والحسبة بمصر، والنظر في جميع الأموال، والأحوال مصر سنة (٤٠٢هـ/١٠١١م)، وقام غين بجميع هذه الإعمال واستمر في عمله إلى أن مرض سنة(٤٠٤هـ/ ١٠١٣م)، فصرف عن الحسبة، وتولها الحاكم بنفسه . المقريزي، اتعاظ الحنفاء،ج ٢ ،ص ٨٩، الخطط ، ج٤ ،ص ٩١.

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفاء ،ج ٢ ،ص ٨٩ ؛ الخطط ، ج٤ ،ص ٩١ .

مصلحة إذا رآها[١]، حتى يتسنى له القيام بهذه الواجبات العديدة وحتى يستقيم له الإشراف على هذه الفروع المتنوعة من الحياة، وهذه الجوانب الكثيرة، كما يمكن القول بأن ما ذكرناه عن أوجه النشاط الاقتصادي التي يقوم بها المحتسب الفاطمي لا تعني ضرورة توفيرها على الدوام بحيث لا يخرج عن دوره فيها ولا يتعداها، وإنما هي في الحقيقة خطوط عامة لما يقوم به المحتسب عادة، لكننا نراه في الظروف الطارئة مثل المجاعات والأزمات الاقتصادية قد يتزود المحتسب بصلاحيات أخرى بحيث يتمكن من مواجهة تلك الظروف الطارئة، ففي الأزمة التي حدثت في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله والتي أدت إلى تعذر وجود الخبز، لم يجد أمامه من الحلول إلا أن تولى الحسبة بنفسه سنة (٣٨٦هـ/٩٩٦م) حتى يكون صارما في أحكامه[٢] وأمر ألا يباع القمح إلا للطحانين، وشدد في ذلك، وضبط عدة حواصل ففرق ما فيها من القمح على الطحانيين بالسعر، فلما اشتد الأمر وارتفع السعر ولحقت الناس من ذلك شدائد عظيمة، واشتكى الناس من شدة الجوع، فاجتمعوا واستغاثوا بالحاكم في أن ينظر لهم وسألوه ألا يهمل أمرهم، ركب حماره ووقف وقال: أنا ماض إلى جامع راشدة [٣]، فأقسم بالله لئن عدت فوجدت في الطريق

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ، ص٣٦١، الشيرزي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٩، ١٠ .

(٢) الذهبي : العبر في خبر من غبر، ج٢، ص٢٢٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٨٤.

(٣) سمى بذلك لأنه في خطة راشدة، ابتدئ بناؤه في ربيع الآخر سنة تسعين وثلاث مئة، وكان متولي خطابته الحافظ عبد الغني بن سعيد، والمصحح لمحرابه أبو الحسن علي ابن يونس المنجم، وكان مكانه كنيسة حولها مقابر لليهود والنصارى، فبني بالطوب ثم هدم وزيد فيه وبنى بالحجر، وأقيمت به الجمعة، وقال: في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، فرش جامع راشدة وتكامل فرشه وتعلق قناديله وما يحتاج إليه، وركب الحاكم بأمر الله عشية يوم الجمعة الخامس عشر منه وأشرف عليه. المقريزي: الخطط، ج٤، ص٦٦.

موضعا يطأه حماري مكشوفا من الغلة لأضربن رقبة كل من يقول لي إن عنده شيئا منها، فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة وعنده غلة حتى حملها من بيته أو منزله وشونها في الطرقات وبلغت أجرة الحمار في حمل النقلة الواحدة دينار فامتلأت عيون الناس وشبعت عيونهم ، وخير الحاكم بأمر الله أرباب الغلال بين أن يبيعوا بالسعر الذي يقرره بما فيه من الفائدة المحملة لهم، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ولا يمكنهم من بيع شيء منها إلى حين دخول الغلة الجديدة، فاستجابوا لقوله وأطاعوا أمره وانخفض السعر وارتفع الضر(١).

كما كانت الدولة الفاطمية تشتد في معاقبة المقصرين في عملهم من العرفاء، وتعزلهم عن عملهم في حالة استغلالهم الظروف وبيعهم بأسعار مرتفعة اعتمادًا على سلطانهم الحكومي، كما حدث في عهد المستنصر حينما أمر الوزير البازوري بصرف عريف الخبازين عن وظيفته ومعاقبته وإغلاق دكانه، حيث كان في كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمورهم؛ وكانت عادة أخباز مصر في أزمنة المساغبة متى بردت لا يرجع منها إلى شيء لكثرة ما تغش به، وكان لعريف الخبازين دكان وكان يبيع الخبز، وبحذائها دكان لصعلوك يبيع الخبز أيضاً، وكان سعره يومئذ أربعة أرطال بدرهم وثمن. فرأى الصعلوك أن خبزه قد كاد يبرد، فخاف من كساده، فنادى عليه أربعة أرطال بدرهم ليرغب الناس فيه؛ فمال إليه الزبون فاشتروا خبزه لأجل تسمحه بثمن درهم؛ وبار خبز العريف، فغضب ووكل به عونين من الحسبة أغرماه دراهم ووافق ذلك نزول قاضي القضاة الناصر للدين أبو الحسين عبد الرحمن اليازوري وزير مصر، في خلافة المستنصر بالله بن الظاهر إلى الجامع، فاستغاث به، فأمر بإحضار المحتسب وأنكر ما فعله؛

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص١٣٥، ١٣٦، ١٧٠، سهام أبو زيد: الحسبة في مصر، ص١٧٦، ١٧٧، عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م ، ص٦٤.

واعتذر بأن هذا من العريف وأنه لم يتحقق باطن الحال، فأمر القاضي بصرف ذلك العريف وأن يغرم ما أخذ من الخباز؛ والتفت إلى صاحب ديوانه، وقال: ما معك فادفعه إلى هذا الخباز، فناوله قرطاسا فيه ثلاثون رباعيان، فكاد عقله يطير فرحا، وعاد فنادى على الخبز خمسة أرطال بدرهم، فمال إليه الناس، وهو ينادي بزيادة رطل برطل، إلى أن بلغ عشرة أرطال بدرهم. وانتشر ذلك في البلد جميعه، وتسامع الناس به فتسارعوا إليه، فلم يبق في البلد خباز حتى باع عشرة أرطال بدرهم(١)

وهذا النص يدعونا إلى عقد مقارنة بين العصر الاخشيدي والعصر الفاطمي من حيث استخدام الأعوان المساعدين، فمحتسب العصر الإخشيدي كما ذكرنا كان يتخذ من الأعوان والحراس وسيلة للظهور والتباهي فحسب دون أن يؤدوا ما عليهم من واجبات بحيث أنهم أثاروا حفيظة رجل من كبار رجالات المجتمع في ذلك الوقت وهو "سيبويه المصري "مما دعاهم إلى مهاجمتهم وتوجيه اللوم لهم ولمن عينوهم، على أن أعوان المحتسب في العصر الفاطمي كانوا على العكس تماما فكانوا يؤدون أعمالهم على وجه حسن، إذا قصر أحدهم في عمله استحق العزل ، وليس أدل على ذلك من أنه عندما أخطأ هذا العريف عزل فورا عن العرافة وعوض المجني عليه كما أشرنا .

كما يوضح لنا النص أيضًا أن قاضي القضاة في مصر الفاطمية كان له سلطة على المحتسب، فقد أنكر فعل العريف في حادث الخباز، وقام بعزل العريف عن العرافة كما ذكرنا، بينما كانت السلطة العليا في تولية المحتسب وعزله في مصر في العصر الإخشيدي في يد الوزير كما سبق أن أشرنا (٢)

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٢٢٥

(٢) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصري، ص٢٩ ،٥٣، ٥٤، سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيدين، ص٢٢٩، ٢٣٠، سهام أبو زيد: الحسبة في مصر، ص٧٢، تيسير محمد شادي: الفساد في الدولة الفاطمية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م، ص٩٧، ٩٨.

* ومما سبق يتبين لنا أن اختصاصات المحتسب الفاطمي في المجال الاقتصادي شملت كل المشاكل الناجمة عن الصناعات، والمهن، والحرف، ثم أخذت اختصاصاته تزداد تدريجيًا نظرًا لكثرة هذه الصناعات، والمهن، والحرف، مما جعل مسئوليته تتعدى إلى ضبط الصحة والأخلاق العامة، والإشراف عليهما، كما سيتبين ذلك من خلال الحديث عن الدور الصحي والاجتماعي للمحتسب.

المبحث الثاني
دور المحتسب الإشرافي والرقابي
في خدمة البيئة الصحية في العصر الفاطمي

كان للمحتسب ونوابه نشاط كبير في العصر الفاطمي في المجالات الصحية، وفي تصوير رقابته الشديدة بمساعدة أعوانه على كل ما يتعلق بصحة الإنسان، فقد أولى المحتسب الفاطمي صحة الإنسان اهتمامًا كبيرًا وخاصة مراعاة صحة الرعية وسلامتهم داخل المنظومة البيئية، فنراه يتشدد في مراقبة كل ما يقدم في الأسواق من طعام وشراب، المطبوخ المجهز منه أو النيء، سواء أكان لحوم أو طيور أو أسماك ..... أو غير ذلك، مما أعد للبيع؛ ومن أجل ذلك كان المحتسب ونوابه في حملات تفتيشية دائمة، يطوفون بالليل والنهار على الأسواق، والحوانيت، ومحلات الأطعمة، والأشربة للإشراف والكشف عن نظافة أواني الأطعمة، وقدور الطبخ، ومعاينة ما بها من مأكول ومشروب للتأكد من سلامة وصلاحية جميع الأطعمة الموجودة، وإعدام ما فسد منها، وكان يأمرهم بغسل القدور والأواني بالماء الحار والصابون، وتغطيتها وحفظها من الذباب والهوام، وبعد تقديم الطعام للزبائن كان عليه أن يتأكد أيضًا من غسل الأوعية التي أكل فيها الناس؛ ويتأكد من تطهيرها باستمرار بماء نقي ساخن، وذلك حفاظًا على صحة الناس، وحتى لا يتسبب في الإضرار بصحتهم ، كما كان المحتسب يأمر القائمين على مطاعم الناس ومشاربهم بتوخي الحرص على نظافتهم الشخصية وخلوهم من الأمراض، خاصة تلك المؤثرة على تعاملاتهم مع أطعمة الناس وصحتهم [1].

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين، ج٢، ٣٣٩، الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص٢٢، ٣٤ ، ٦٠، ابن الاخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ،ص١١٠ ، ١١١، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٧٣ ، ٢٠٧ – ٢٠٩المقريزي : الخطط، ج١، ص٤٦٤، سهام أبو زيد: الحسبة في مصر، ص ٢٠١ – ٢٠٨ .

* وقد كانت هناك عدة قواعد صحية للحسبة في العصر الفاطمي كلها تهدف إلى المحافظة على سلامة السكان، ونظافة المدن، وخططها، وشوارعها، والقيم الجمالية فيها، فكان المحتسب يأمر بإزالة الطين من الأسواق، والطرقات، وشوارع المدينة إذا كثر، وإذا تراكمت الأزبال، والأتربة، ونحوها كان المحتسب يأمر عمال النظافة بجمع تللك القمامة من الأسواق، والشوارع، وتنظيفها يوميًا، وذلك لأن النظافة تعتبرًا عنصرًا مهمًا من عناصر الحفاظ على الصحة العامة(١)، ومنذ العصر الفاطمي نسمع عن دور آخر من أدوار المحتسب في خدمة البيئة من حيث العناية بالطرق، والمحافظة على نظافتها، وعدم إثارة الأتربة منها من ناحية، وربما لتلطيف درجة الحرارة فيها من ناحية أخرى ، ويتمثل هذا الدور في تخصيص عدد من السقائين أرباب الجمال بما تحمله دوابهم من روايا مصنوعة من جلود الأبقار، والثيران مملوءة بالماء، وذلك لرشه في الشوارع ما بين القاهرة والفسطاط يومين في الإسبوع ودفع دينار واحد لكل سقاء منهم (٢)، وكذلك ينطبق هذا على الباعة الذين يبيعون الأطعمة في الأسواق والطرقات، فيأمرهم أن تكون أماكنهم وأدواتهم نظيفة، فهو يرى أن المحافظة على الصحة تقتضي منعهم من ذلك(٣) .

* وقد صدرت في العصر الفاطمي في مصر من القوانين الصحية ما حظر به على التجار، والباعة أن يتركوا بضاعتهم، ومأكولاتهم، ومشروباتهم تعلوها القذارة، أو يصيبها الغش، كما رأت الدولة الفاطمية أن كثرة الكلاب، والخنازير بمصر سيتسبب في نقل الأمراض للمواطنين من ناحية، وأن كثرة نباحها سيؤثر على راحتهم أثناء الليل من ناحية أخرى، ومن ثم اتخذت قرارًا بطردها

(١) أحمد مصطفى المراغي : الحسبة في الإسلام ، ص٥ ، سهام أبو زيد: الحسبة في مصر، ص٢٠١ .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج ، ص١٠١ .

(٣) ابن بسام: نها ية الرتبة في طلب الحسبة، ص٢٧-٣٠، ابن الاخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ،ص٢٠٧ – ٢٠٩.

لنجاستها، أو لكثرة نباحها ليلًا، أو لغرض وبواعث صحية، وقد بالغ الخليفة الحاكم بأمر الله سنة (٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) في قتل الكلاب والخنازير حتى قتلت تقريبا عن آخرها[١] ، وتكررت هذه الحملة ضد الكلاب في سنتى (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م)، و (٤٠٥هـ/ ١٠١٤م)[٢].

* وقد كان من أهم أعمال المحتسب في العصر الفاطمي الإشراف على أصحاب التجارة، والصناعة في الدولة، فكان على المحتسب أن يتعرف على دقائق كل حرفة، وتجارة ليكشف بسهولة عن الغش الذي يرتكب في الأسواق ضد حياة الناس المعيشية، والتي قد يتسبب في إلحاق الضرر الصحي بهم ، فكان يأمرهم بأداء واجبهم على الوجه الصحيح، وعدم تقصيرهم، وأمانتهم، وعدم خيانتهم، وكان المحتسب يراعي في عملهم الجودة والبعد عن الرداءة، وهو مما ينفرد بالنظر فيه ولاة الحسبة، ولهم أن ينكروا عليهم في العموم فساد العمل ورداءته، فيقوم المحتسب بتغريمهم وتأديبهم على سوء عملهم[٣] .

---

(١) الصُّنْهاجي: محمد بن علي بن حماد بن عيسى الصنهاجي القلعي (ت ٦٢٨هـ/١٢٣١م): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق: التهامي نقرة ، عبد الحليم عويس، نشر: دار الصحوة، القاهرة ، ص٩٨ ، ابن خلكان : أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيان الأعيان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس ، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج٥ ، ص٢٩٣ المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٥٦ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص١٧٧، عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، ص٦٠ .

(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ص١٣١ .

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٣٥١، الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص١١٨، ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسب، ص٢١٥، ابن الاخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ،ص٢٧١– ٢٧٨ ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ص١٦٩ .

* وكما كان المحتسب في العصر الفاطمي يُحرم على التجار احتكار الحبوب كما ذكرنا، كان يحذر أيضا من خلط رديء الحنطة بجيدها حفاظًا على صحة الناس، وإذا دعت الحاجة إلى غسلها كان المحتسب يؤكد على تجفيفها بعد غسلها تجفيفًا بليغًا، كما كان المحتسب يلزم الطحانين غربلة الغلة من التراب وغيره مما يضرها، ويختبر المحتسب عليهم الدقيق لئلا يخلطوه بغيره من دقيق الشعير، أو الحمص، أو غيره حفاظًا على صحة المواطنين(١)، وحفظًا عليهم أيضا كان المحتسب يأمر العجانين ألا يعجنوا بأقدامهم، ولا بركبهم، لأن في ذلك مهانة للطعام ، وحتى لا يسقط في العجين شيء من عرق إبطيه، أو بدنه، اشترط المحتسب ألا يعجن إلا وعليه ثياب مقطوع الأكمام، ويشد على جبينه عصابة بيضاء حتى لا يسقط من عرقه شيئ في العجين، ويأمره بحلق شعر ذراعيه حتى لا يسقط منه شيء أثناء العجين، ويكون ملثمًا حتى إذا ما عطس، أو تكلم لا يسقط من بصاقه، أو مخاطه شيء في العجين، كما يأمر المحتسب الخبازين أن ترفع سقائف حوانيتهم، وتفتح أبوابها، ويجعل في سقوف الأفران منافذ واسعة يخرج منها الدخان لئلا يتضرر الناس من ذلك، وإذا فرغ الخباز من إحماء الفرن مسح داخله بخرقة نظيفة، ثم شرع في الخبز(٢)، كما يأمر الفرانين بإصلاح مداخن الفرن وتنظيف بلاطه كل ساعة، لئلا يلصق في أسفل الخبز منه شيء، وألا يخرجوا الخبز للجمهور إلا بعد التأكد من نضجه، واشترط عليه أن يكون له مخبزان: إحداهما للخبز، والآخر للسمك، وذلك حتى يكون السمك بمعزل عن الخبز فلا يسيل شيئ من دهنه على

(١) السقطي المالقي : أداب الحسبة ، ص٢١ ، الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٢١، ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسب، ص٥٩ ، ٦٠ ، ابن الاخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٨٩ .

(٢) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٢٢، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسب، ص٢١ -٢٤، ابن الاخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٢٧١ - ٢٧٨.

الخبز[١]، وهكذا كان المحتسب يتعهد ويتولى الإشراف على الخبز من بداية تحضيره، مرورًا بطحنه، وعجنه، وخبزه، حتى المرحلة الأخيرة، وهى اكتمال نضجه، وإخراجه إلى الناس صحيحًا سليمًا بلا عيب.

* كما ألزم المحتسب صناع الزلابية والحلويات أن تكون بالزيت الصافي، وألا يشرع في قليها حتى يختمر عجينها، وأن يكون قليها في إناء من النحاس الأحمر الجيد[٢].

* كما ألزم المحتسب القائمين على سقاية الماء (السقائين) بالامتناع عن النزول لجلب الماء إلا وفي أوساطهم التبابين، وهي السراويل الصغيرة التي تكون للملاحي عادة [٣] ، ويأمرهم المحتسب أيضًا بالابتعاد عن الشواطئ حتى يأمنوا الأقذار التي تجرفها الأمواج عليها عند ملو قربهم، وألا يستقوا من مكان يكون قريبًا من سقاية، ولا مستحم، ولا مجراة حمام ، وعليهم الالتزام مع أصحاب الأزيار بوضع معايير النظافة التامة نصب أعينهم ، بغسل القرب، والأزيار، وتغطيتها، بل وحرج عليهم أن يسقوا أصحاب الأمراض الظاهرة بالكيزان نفسها التي يسقى منها الناس الأصحاء؛ والتي يجب أن يتم جلوها كل ليلة، وتطيب شبابيكها بشمع المسك، واللادن الطيب العنبري[٤]

---

(١) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص٢٤، ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسب، ص٦١ ، ٦٢، ابن الاخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ،ص١٥٤ ، ١٥٥

(٢) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص٢٥ ، ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٤١ ، ٤٢ ، ابن الاخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص١٨٠.

(٣) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص١١٧ ، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة: ص ٢٥. المقريزي : الخطط، ج٢ ، ص٣٨٨ .

(٤) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة. ص ٢٥ ، ٢٦،ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ٣٤٨ – ٣٤٩.

* كما وضع المحتسبون في العصر الفاطمي رقابة شديدة على الجزارين، والقصابين، وطباخي اللحوم، فكان يأمر الجزارين بعدم نفخ الشاة بعد سلخها لما فيه من تغيير اللحم [١]، وكان يشدد عليهم ألا يخلطوا لحوم الماعز بلحوم الضأن، فيأمرهم أن يتركوا أذناب الماعز معلقة على لحومها حتى آخر البيع، ويؤكد على نظافة الأدوات التي يستخدمها الجزار[٢]، وحتى يأمن الناس على صحتهم وسلامتهم عند تناول اللحوم كان يشترط فيمن يقوم بعملية الذبح أن يكون مسلمًا عاقلًا يذكر اسم الله على الذبيحة، ويستقبل القبلة، ويضع الذبيحة على جانبها الأيسر، ولا يذبح بآلة كالة لما فيه من تعذيب للحيوان المذبوح[٣]، كما حرص المحتسب على مباشرة الطباخين والتأكد من نظافة أوانيهم حتى تكون بمنأى عن الذباب، وهوام الأرض، ويأمرهم بنظافة وغسل القدور، والأواني جيدًا بالماء الحار، ويأمرهم أن لا يخلطوا أنواع اللحوم ببعضها، بل كل صنف يعمل وحده، ويعلم به المشتري؛ وألا يخدعون الناس بزيادة البصل والدهن في المرق عند طبخ هذه اللحوم؛ وغرفه للمشتري قليل اللحم كثير الزخم؛ أو يغشون" السنبوسك"– وهى عجينة مثلثة الشكل تحشى بجبن أو لحم –بحشوه بالبقلاء وبياض البصل بدلا من اللحم؛ وغيرها من أنواع الغشوش التي تغير صفة الطعام، فهنالك أصناف تصنع أطباق اللحوم بدون وجود اللحم، وقلايا كبود من غير كبود، ومخ من غير مخ، ونقانق، وطردين من

(١) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ٢٧. ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ١٦٣ .

(٢) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،ص٢٨ ،ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة. ص ١٦٤ . ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص٣٤ .

(٣) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٢٧،ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ١٦١ .

غير لحم، وعجة من غير بيض، وحلاوة من غير عسل، ولا سكر [١] ، وقد أولى المحتسبون القائمون على طبخ اللحوم وبيعها أهمية خاصة بسبب غلو سعرها، وكثرة غشوشها من قبل أرباب السوق من الشوائين، والهراسين، والرواسين، وغيرهم، فواجب عليهم أن يأمروا الشوائين بعدم الذبح إلا البهائم البلدية صغيرة السن، وأن توزن البهائم قبل إنزالها في التنور لمعرفة مدى نضجها حيث تنقص الثلث بعد النضج، كما يجب تنظيفها جيدًا من قبل الشواء؛ والعمل على تمام النضج وعدم الغش بإضافة التوابل والألوان الخادعة؛ الذي تظهر للمشتري أنها أصبحت مكتملة النضج كذبًا وهو غير ذلك، كما تتم مراعاة نظافة التنور ولا يعجن طينه إلا طاهرًا، لأن بعضهم يأخذ من أرض الحانوت الطين فيعجنه مع ما فيه من دم وروث فتحدث النجاسة[٢]، ويأمر الرواسين بسمط الرؤوس، والأكارع بالماء الشديد الحار، وتنظيفها، وتنقية الشعر، والصوف منها جيدًا، ثم تغسل بالماء البارد، ويأمرهم بعدم خلط الرؤوس البائتة مع الرؤوس الطازجة، وفصل كل منهما عن الآخر[٣]، وكل هذا يوضح لنا مدى بعد نظر المحتسب في حرصه على صحة أفراد المجتمع حتى في أسهل الأمور وأبسطها .

* كما ألزم المحتسب صائدي الأسماك ألا يصطادوا الأسماك الميتة التي ترمي بها الأمواج على الشطوط فيأخذه الصيادون ويبيعونه مع ما يصاد من أسماك حية، وهو ضار وممنوع أكله؛ فيأمرهم بالتخلص منه برميه [٤] كما

(١) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة. ص ٣٥، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٤٤.

(٢) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٣٠، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٣٨، ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسية؛ ص ١٥٦.

(٣) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٣٢، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،ص٤٣، ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص١٧٢.

(٤) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٥٣ .

حرص المحتسب على مراقبة الذين يشتغلون بهذه المهنة لأنها تتعلق بالدرجة الأولى بصحة الناس، فكان يلزمهم بغسل موازينهم، وأطباقهم، وغسل السمك جيدًا ، وألزمهم المحتسب بعدم الخلط بين السمك البائت بالطازج، واستخدام الطازج منه فقط، وعدم استخدام زيت القلي لعدة مرات، بل يجب تغييره وعدم غشه، والتأكد من تمام نضجه [١] .

* أيضًا ألزم المحتسب بائعي اللبن من السمانين بعدم صبغ منتجات الألبان كالزبد، والسمن باللون الأصفر، وعدم خلط الجيد بالرديء، واللبن بالماء، والزم البقالين بعدم غش الدبس – عسل التَّمْر وَمَا يسيل من الرطب– حتى يرتفع سعره لما فيه ضرر للناس، كما أكد على نظافة محلات البقالة وأوعية الألبان، وكان المحتسب يتفقد حوانيت البقالين، واللبانين بالأسواق، ويعتبر عليهم بضاعتهم، وموازينهم على حين غفلة منهم [٢]، وامتدت يد المحتسب لتشمل باعة الخضرة فكان يأمرهم ببيعها منقاة، ومغسولة، وينهاهم عن غسل الثوم والبصل، لأن الماء يتسبب في فسادهما، كما يمنعهم من بيع الخضروات والفاكهة قبل نضجها، كما ألزم بائعي المخلل بعدم بيع ما تطرقت إليه الحموضة، وأمر المحتسب البقالين بتخزين بضائعهم في أوعية محكمة حتى لا تصيبها الأتربة أو الحشرات[٣].

* هذا ولم يتوقف دور المحتسب على الرقابة والإشراف الصحي على كل أصحاب المهن السابقة فقط، بل تعداها إلى حرص المحتسب الفاطمي وأعوانه على ترتيب السلع المختلفة في الأسواق كل في المكان الذي يليق به، فكان

---

(١) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٣٣، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٥٦، ٥٧ .

(٢) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة. ص ٥٨ –٦٠، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٢٩ –٣٣، ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٢١٠.

(٣) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١١٦، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص٣٠ –٣٣ .

المحتسب يقوم بتنظيم الحرف والصناعات حسب أنماط وتجانس كل حرفة مع التي تجاورها داخل الأسواق، فكان يبعد حوانيت الخبازين والطباخين ممن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار كالمخابز، وأفران الطباخين، وقلائي السمك، كان يبعدها عن دكاكين العطارين، والبقالين، والبزازين لعدم المجانسة بينهم وحدوث الأضرار، و لئلا يتطاير منها الشرر فيصيب الأشياء الأخرى وتحدث أضرار جسيمة تضر بصحة الناس(١).

* وقد كان من أهم الجوانب التي اهتمت بها الحسبة في العصر الفاطمي المنشئات الصحية ، حيث فوض للمحتسب حق تفقد البيمارستانات والإشراف على نظافتها، وأعطاها الخلفاء الفاطميون الاهتمام الكبير في الرعاية الطبية والاجتماعية، وجعلوا الغرض من إنشائها مداواة كل المرضي سواء أكانوا رجالا أم نساء ، أثرياء أو فقراء ، مقيمين بالقاهرة أو بضواحيها على اختلاف أجناسهم، وتباين أمراضهم بدون مقابل، مع توفير كافة الأدوية للمقيمين بالبيمارستان والقادمين إليه حتى يتم الشفاء، وكان الخلفاء الفاطميون يأمرون المحتسبين بمراقبة الأطباء، والصيادلة، والكحالين حتى يقوموا بدورهم على الوجه الأكمل (٢) فكان على المحتسب أن يعين عريفًا على الصيادلة يكون ثقة عارفًا بالدواء لمنع غشه، فكان يباشرهم، ويخوفهم، وينهرهم، بالعقوبة أو التعزير(٣)، وكان من ضمن واجبات المحتسب مراقبة الفصادين، والحجامين، وامتحانهم ليجيز لهم أداء مهنهم، فوضعت شروط لا بد من توافرها في الفصادين، والحجامين منها: أنه لا يتصدى للفصد إلا من اشتهرت معرفته بتشريح الأعضاء، والعروق، والعضل، والشرايين، وأحاط بمعرفة تركيبها،

(١) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١١، ١٢، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٧.

(٢) محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ص٣٤١.

(٣) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٤٢ ، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٨٥ .

وكيفيتها لئلا يقع المِبْضَع في عرق غير مقصود، أو في عضلة، أو شريان فيؤدي إلى زمانة العضو (أي مرضه مرضًا مزمنًا)، وهلاك المريض، فيمتحنهم المحتسب بمعرفتها وبما جاورها من العضل والشرايين[١] .

كما ينبغي على المحتسب مراقبة الأطباء بأن يأخذ عليهم عهد "ابقراط" الذي أخذه على سائر الأطباء، ويحلفهم ألا يعطوا لأحد دواء مضرا، ولا يركبوا له سمًا، ولا يصفوا له التمائم عند أحد من العامة، ولا يكتبوا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال الذي يقطع النسل، ويأمرهم أن يغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار، ولا يهتكوا الأستار، ولا يتعرضوا لما ينكر عليهم فيه[٢]، ويشترط المحتسب على الأطباء أن تكون آلاتهم على درجة الكمال[٣] ويمتحن الأطباء والكحالين بما ذكره حنين بن إسحاق في كتابه " محنة الطبيب" و " المقالات العشر في العين " [٤] .

& كما كان المحتسب يشرف على الحمامات إشرافًا دقيقًا نظرًا لتعلقها بالنواحي الصحية، وذلك لأن أي إهمال في مراقبتها يمكن أن يحولها من مكان للنظافة، والاستشفاء من الأمراض إلى مكان موبوء، ووكر لانتشار الأمراض، ومن الممكن أن يكون سببًا في إصابة المترددين عليه بالعديد من الأمراض، ومن هنا ألزم المحتسب القائمين على الحمام بتنظيفه تنظيفًا مستمرًا يوميًا، ولعدة

---

(١) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٨٩ ، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ١٠٨ ، ابن الاخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ، ٢٤٧.

(٢)الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ١٦٧، ابن الاخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ،ص ٢٥٦.

(٣) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٩٨، ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٠٩ .

(٤) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٩٩، ١٠٠. ابن الاخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٢٥٦، ٢٥٧، الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي(ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان ،١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٢٩، ص٣١.

مرات بعد الاستخدام للماء النظيف غير المستعمل؛ واستخدام فرش خشنة لتطهير حوض الحمام وبلاط أرضه حتى لا يعلق به شيء يتسبب في انزلاق أرجل الناس عندما يمرون عليه؛ ويأمرهم بوضع مياه متجددة طاهرة توضع في الأحواض لاستخدام المستحمين واغتسالهم؛ مع مراعاة سلامة قومة الحمام من أي مرض، وكذلك العاملين به، كما يمنع المحتسب دخول ذوي الأمراض الظاهرة كالبرص، والجذام، وأصحاب العاهات إلى الحمام حتى لا تنتشر الأمراض بين المنتفعين بهذا المرفق الصحي الحيوي المهم [١]، وقرئ سجل فاطمي كان فيه ألا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر، وقبض على جماعة وجدوا بغير مئزر فضربوا وشهروا من أجل أنهم وجدوا بغير مئزر[٢] ، وارتبط عمل المحتسب بمراعاة الملبس الشرعي للمستخدمين للحرام؛ مع عدم المساس بالأخلاقيات، أو مخالفة الشرع أثناء الغسل أو الدلك أو الزينة وإذا تم ضبط أي مخالفات من هذه الأشياء يؤدب المحتسب المخالفين في الحال[٣]، كما يتقدم المحتسب إلى الوقادين في الحمامات، ويأمرهم بأن لا يوقدوا بسماد، ولا بطعام، وأن يتفقدوا مجاريها، ويحسنوا تدبيرها، ولا يقطعوا ماء الطهور عنها، وإن قل، ولا تقطع إرسال ميازيب المسلخ؛ ليكون ذلك عوناً على نظافة الأسطوان، ولا يبيت الماء في أحواض الحرارة، ولا يمكن السوقيون أن يأخذوا من رماد الحمام؛ لأنهم يغشون به رمادهم إذا باعوه للزيادة في ثمنه، فيمنعون من ذلك ، وقيل: إن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله نهى عن الفقاع (نوع من البيرة يعتبرا مسكرًا) وضرب جماعة لشربه وشهروا، فإنهم ربما غشوه وعملوه

(١) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة؛ ص ٨٦ _ ٨٨، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٦٧ – ٧٢، ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة» ص ٢٤٠–٢٤٤.

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٥٤، ٧٦، الخطط، ج٤، ص١٦٤.

(٣) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة: ص٧٠ – ٧٢. ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة. ص ٢٤٤.

من غبار الطواحين، فإذا أراد المحتسب امتحانه عليهم أمر أن تغلى كيزانه في الماء الحار وهي مملوءة مسدودة، ثم يقلبها عند غليانها، فإن تعذر ولم ينزل من كيزانه، فهو غبار معمول، وإن كان من شعير انساب ونزل بلا كدر، ويؤمرون بتكثير أفاويه ومسكه، ويقللون من سدابه لعلة فساده للباه، والفقاع مكروه في الشرع والطب جميعاً[١].

* بل وصلت الرعاية الصحية إلى السجناء الذين لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا، وكانوا في أمس الحاجة إلى توفير الرعاية الصحية والطبية والإشراف الصحي، فقد اهتمت الدولة الفاطمية بهم، وبعلاجهم، وقامت بتقديم الرعاية الطبية لهم فكان بكل سجن بيمارستان خاص به مجهز بجميع ما يلزم المرضى من أدوات، وأدوية، وأطعمة، وأشربة، وملابس، وأطباء، وصيادلة، وكل ما هو لازم للمرضى والعجزة من المسجونين، فكان الأطباء يدخلون عليهم كل يوم حاملين الأدوية وأشربة وما يحتاجون إليه من المزورات(شربة الخضار وهى حساء بدون لحم ولا دسم)، وكان الحاكم بأمر الله قد جعل النفقة على الأسرى والمسجونين ضمن ما تتطلبه البلد من وجوه الإصلاح كمرفق من المرافق العامة [٢] .

* كما اهتمت الدولة الفاطمية بإنشاء المقابر وأسندت الرقابة والإشراف على حافري المقابر إلى المحتسب حرصا منهم على حماية البيئة من التلوث وانتشار الأمراض والأوبئة، فكان المحتسب يأمر حافري المقابر أن يعمقوا حفر القبر قدر قامة الرجل حتى لا تنبشه الكلاب أو تخرج رائحته فيتأذى منها الناس، وتصيبهم بالأمراض، وإذا ظهر عند الحفر عظم لأحد المدفونين

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٩٣، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة: ص٧٠ – ٧٢، الذهبي : تاريخ الإسلام ،ج٩ ، ص١٩٨، المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج ٢، ص٧٧، ٩٠ – ٩٥، الخطط، ج ٤،ص١٦٣.

(٢) عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، ص ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٩٤.

فينبغي سترها بالتراب، ولابد أن يعمل للقبر لحد، ويوضع تحت رأسه لبنة، وبعد دفن الميت ينهال عليه التراب، ويرفع القبر عن الأرض قدر شبر، ليظهر للناس فلا تطؤه الأقدام(١)، وكان المحتسب يشرف على أهل الجنائز، ويشترط ألا يتصدى لغسل الموتى إلا من كان ثقة أمينًا صالحًا خبيرًا عالمًا بواجباته وسننه(٢)، وكان الحاكم بأمر الله قد جعل النفقة على تشييد المقابر ضمن ما تتطلبه البلد من وجوه الإصلاح كمرفق من المرافق العامة (٣) .

* ومن هنا يتضح لنا مدى الدور المهم الذي لعبه المحتسب في حياة المجتمع المسلم في عصر الدولة الفاطمية في شتى جوانب الحياة لاسيما الجوانب الصحية والطبية وهو ما انعكس إيجابيًا على حالة المجتمع الصحية.

(١) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ١٦٩، ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص١٠٤ –١٠٧.

(٢) ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة، ص١٠٢–١٠٥.

(٣) عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥.

المبحث الثالث

دور المحتسب الإشرافي والرقابي

في خدمة البيئة الاجتماعية في العصر الفاطمي

الأصل في وظيفة الحسبة الاجتماعية مشارفة الأسوق، والنظر في مكاييلها وموازينها، ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشترى من مأكول، ومصنوع، وغير ذلك من الوظائف التي تقوم بها الآن المجالس البلدية، ومفتشو الصحة، ومفتشو الطب البيطري، ومصلحة المكاييل والموازين وقلم المرور، ورجال الشرطة الموكول إليهم المحافظة على الآداب العامة إلى غير ذلك [١].

ولقد اهتم المحتسب الفاطمي بإرساء قواعد الآداب، والأخلاقيات العامة، وحفظها في الطرقات، والأسواق، والكيانات المختلفة التي تشهد حركة الناس، وتعاملاتهم في حياتهم الاجتماعية؛ فمنع المحتسب ظهور الأهالي في الشوارع بكل منكر وقبيح؛ ومنع مخالطة الرجال بالنساء في الأسواق لغير حاجة لبيع أو شراء أو التهتك في المنتزهات العامة.

* وكان لنظام الحسبة في مصر في العصر الفاطمي أثره الكبير وأهميته الخاصة في تنظيم الحياة الاجتماعية في مصر خلال العصر الفاطمي، وفي إقرار مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحقيق ذلك عمليًا بشأن الحياة الاجتماعية يتمثل في الاهتمام بالمرافق الخدمية الخاصة بها، والقضاء على كل ما يخل بالبيئة الاجتماعية للمجتمع؛ وقد ظهر ذلك الأثر بشكل واضح من خلال تلك الإجراءات التي اتخذها المحتسب للقضاء على أعمال المجون والخلاعة التي ظهرت في المجتمع الفاطمي، والتي من واجبه القضاء عليها، فالمحتسب في العصر الفاطمي كان همه الأول الإشراف على أخلاق أفراد المجتمع، والحرص على توافر الأمانة والأدب بينهم، ويمكن القول بأن

(١) أحمد مصطفى المراغي : الحسبة في الإسلام ، ص٥ .

مجمل المخالفات الواجب على المحتسب أن يمنعها على وجه العموم تتمثل في خرق الطريق المستقيم [١] ، فهو المسئول عن وقاية المؤمنين من التعرض لمغريات المثل السيء مثل شرب الخمر، والمقامرة، وإن كنا قد خصصنا الحديث عن العصر الفاطمي ففيه صدرت المراسيم المحرمة لشرب الخمر من النبيذ وغيره فشدد المحتسب على الخمارين وطارد السكارى وعاقب المخالفين بشده، وقد بلغت هذه الشدة أقصاها في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله فأصدر من القوانين في سنة (٤٠٢هـ/ ١٠١١م) ما نهى به عن بيع الزبيب قليله وكثيره على اختلاف أنواعه، ونهى التجار عن حمله إلى مصر، ثم جمع منه بعد ذلك جملة كثيرة وأحرق جميعها، ويقال إن مقدار النفقة التي غرموها على إحراقه كانت خمسمائة دينار ، وفي هذه السنة منع من بيع العنب، وأنفذ الشهود إلى الجيزة حتى قطعوا كثيرًا من كرومها ورموها في الأرض وداسوها بالبقر، وجمع ما كان في مخازنها من جرار العسل فكانت خمس آلاف جرة، وحملت إلى شاطىء النيل وكسرت وقلبت في بحر النيل [٢] ، كما قام الحاكم بأمر الله بتقليد "غين الخادم النصراني" أحد خدامه الحسبة، وقلده الحسبة بالقاهرة ومصر والجيزة، والنظر في أمور الجميع وأحوالهم كلها، وكتب له سجلا بذلك وكان في سجل "غين" مراعاة أمر النبيذ وغيره من المسكرات، واستمرت أوامره المشددة في تحريم الخمر فكان يقيم الحد على من يشربها ولو

(١) ابن تيميه : الحسبة في الإسلام ، ص١٦ –٢٥، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج١، ص٢٨ –٣٠ ، ابن الديبع : وجيه الدين عبد الرحمن بن علي الشيباني (٩٤٤ هـ / ١٥٣٧م): بغية الإربة في معرفة أحكام الحسبة، تحقيق: طلال بن جميل الرفاعي، نشر: معهد البحوث العلمية، مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢ م، ص٧٢ –٧٩. أحمد مصطفى المراغي : الحسبة في الإسلام ، ص٣٠ . .

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٩٣، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٨، ص١٩١، المقريزي: الخطط، ج٤، ص٧٥.

في بيته سرًا [١]، بل وصل الأمر بالحاكم أنه كان يتعامل بالحزم فيمن يشك فيه استعمال الفاكهة خمرا، ففي سنة (٤٠٢هـ/ ١٠١١م) خاصم تاجر فاكهة الحاكم بأمر الله أمام القاضي لأنه أمر أحد عماله بإبادة فاكهته ظنا منه أنه يستعملها خمرا، وطالب الخصم الخليفة بتعويض قدره ألف قطعة من الذهب، فعامل القاضي الخليفة معاملة خصمه وواجهه بالتهمة فلم ينكرها، وصرح الخليفة للقاضي بأنه فعل ذلك خوفا من أن يستعمل الخصم الفاكهة خمرا، ووعد بدفع مبلغ التعويض إن حلف الخصم بأن فواكهه كانت ستستعمل للأكل فقط، فحلف التاجر، فدفع الخليفة التعويض للتاجر[٢]، وهذا يدل على أن الحسبة في زمن الحاكم بأمر الله كانت من المؤسسات المهمة في الدولة لمراقبة الأسواق، ومنع الغش من جهة، ومنع المنكرات وشرب النبيذ من جهة أخرى، حيث شدد الحاكم بأمر الله على هذه النواحي المهمة في الدولة لضمان الأمن والاستقرار.

* كما كان من واجب المحتسب أن يصون الأمة من المعاملات المنطوية على التدليس، فقد كان من واجبه إنذار معلمي السباحة، والذين كانوا مصدر أضرار خلقية بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس فمن فعل من ذلك شيئا عزره[٣]، وعليه أيضا إيقاف مضايقة الجمهور، وإزالة كل ما يعوق حركة المرور فكان يمنع أهل السوق من الجلوس في الطرقات الضيقة، ولذلك كان تخطيطهم للأسواق والحوانيت في العصر الفاطمي على نسق الأسواق البيزنطية من حيث الارتفاع والاتساع، وكان من أهم واجبات المحتسب في العصر الفاطمي الاهتمام بهذه الأسواق والشوارع والطرقات من حيث ملائمتها،

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٨٩، الخطط، ج٤، ص٩١.

(٢) عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، ص٢٢٨.

(٣) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٠٨، المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٨٨.

وارتفاعها، واتساعها للمارة [١] فكان لا يسمح لأحد من السوقة وأصحاب الحوانيت إخراج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف التي تظلها إلى الممر الأصلي لما فيه من التعدي على المارة، وإذا وجد ذلك وجب على المحتسب إزالتها، ومنع صاحب الحانوت من فعل ذلك لما فيه من إلحاق الضرر بالناس [٢]، كما كان من عمل المحتسب الاجتماعي تفريق الأفران على الدروب، والمحال، وأطراف البلد، لما فيهم من المرافق، وعظم حاجة الناس إليهم [٣].

* وكان هناك تفويض من الخلفاء الفاطميين للمحتسب في أمر الرقابة والإشراف على المرافق العامة، فاهتم المحتسب في العصر الفاطمي بشأن العمران، والطرقات، وتعداه إلى كل ما يعيق حركة السير، ومنع كل ما يلوث الشارع ، فلا يجوز طرح القمامة ومخلفات المنازل فوق السبل، أو إرسال المياه تنساب من ميازيب الحوائط إلى الشوارع الضيقة، أو ترك أوحال المطر بغير كسح، أو إزالة، وليس يختص به شخص معين، فعلى المحتسب أن يكلف الناس بالقيام بها، كما يمنع كل ما يعرض ثياب الناس إلى الاتساخ أو التمزق والتلف، فيحذر دخول أحمال الحطب، والتبن، والرماد، ونحوها إلى الطرق التي يرتادها المارة، وكذلك روايا الماء الكبيرة – وعاء مصنوع من جلد الثور – المحمولة على الدواب، ويأمر السقائين بتغطيتها بالأكسية لعدم اتلاف

(١) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١١ ، ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٧ .

(٢) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١١ ، ١٢ ، ٧٨ ، ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٧ .

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٣، الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٢٤.

ملابس الناس[١]، كما أمر المحتسب أصحاب الحوانيت أن يجعلوا عند كل حانوت زير مملوء بالماء مخافة أن يحدث الحريق في مكان فيطفأ بسرعة ،كما حرص المحتسب علي توفير الأمن والأمان للمصريين فكان حريصا على إرسال من يطوفون الأحياء ليلًا حيث رتب "الخفراء" تدور في الليل بطبول في جميع الحارات والخطط، وبهذا تكفل المحتسب الفاطمي بحفظ سلامة الناس في شوارعهم [٢] ، وأصدر المحتسب تعاليمه لبائعي الأسماك بحمل بضاعتهم في قطاف كبيرة لكي لا يعدم به ثياب الناس في الأسواق ، ومن وجد حاملا سمكًا في يديه يأمره المحتسب بوضعه في حجره تأديبا له[٣]، كما منع القصابين من الذبح على أبواب الدكاكين حتى لا يلوث الطريق بالدم والروث ، لما فيه من تضييق الطريق ، وإضراره بالناس بسبب ترشيش النجاسة ، كما منعهم من إخراج اللحم عن حد مصاطب حوانيتهم لئلا تلاصقهم ثياب الناس فيضرون بها [٤].

وكان المحتسب ينفذ لوائح البناء ويعين على الحدادين، والمساميريين، والنجارين، والبنائين، والفعلة، والنشارين، عريفًا له دين وبصيرة بصناعتهم، فقد يوافق أكثر الصناع على أجرة معلومة كل يوم، فيتأخرون عند الغدو، وينصرفون قبل المساء، فينبغي أن يشترط في ذلك بما يمتنع منه، ولا ينصرفون إلا مساءً، ومن البنائين والنجارين والحدادين من يقرب على أصحاب الأشغال من يعملونه لهم، ويهونونه عليهم، ويقللون مؤونته، حتى إذا

(١) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١١٧، المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٨٨، أحمد مصطفى المراغي : الحسبة في الإسلام، ص٢٦ .

(٢)المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك: تحقيق: محمد عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية ، لبنان ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٣، ص٤١، الخطط، ج٤ ، ص، ١٩٤ ، ٤٤٣ ،

(٣) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٥٣ .

(٤) ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة؛ ص١٦٣.

نشطوا إليه، وشرعوا فيه، طالبوهم بزيادة المؤونة عما قرروه، فكان في ذلك خطر، وغش؛ لأنه ربما افتقر، وركبه دين بسببه، وربما ألجأته الضرورة فباع الموضع بسبب المطالبة قبل إتمامه، وفي هذا أذية عظيمة[١] .

* ويلزم أصحاب المنازل المتداعية للسقوط بإزالتها لما قد يقع من ضررها على المارة[٢]، وكان يهدم كل ما يعوق طريق المارة مهما كان حتى وإن كان البناء مسجدًا، لأن الطريق للعبور وليس للبناء[٣]، كما كان من أهم أعمال المحتسب في العصر الفاطمي إزالة التعديات على نهر النيل، أيا كان صاحبها، فقد كان للخلفاء الفاطميين، منظرة تعرف بقصر اللؤلؤة، أو بمنظرة اللؤلؤة تقع على النيل بالقرب من باب القنطرة، وكانت قصرًا من أحسن القصور، وأعظمها زخرفة، وهو أحد منتزهات الدنيا المذكورة، فأمر الحاكم بأمر الله في السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة (٤٠٢هـ/ ١٠١١م) بهدمها فهدمت، وقد قال عنها ابن المأمون: ولما وقع الاهتمام بسكن اللؤلؤة، والمقام فيها مدّة النيل على الحكم الأوّل يعني قبل وزارة أمير الجيوش بدر وابنه الأفضل، أمر بإزالة ما لم تكن العادة جارية به من مضايقها بالبناء [٤]

* كما كان المحتسب يلعب دور الحكم فيما يظهر من نزاع بين أهل الصنعة الواحدة أو الصناعات المختلفة، كما كان يفصل في الخلاف بين المقاولين وعملائهم[٥]، وكان من ثمار نظام النقابات الذي وجد في مصر ابتداء من

---

(١) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،١٤٠ – ١٤٦.

(٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج١ ، ص٢٨١، أحمد مصطفى المراغي : الحسبة في الإسلام، ص٢٥ .

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ٣٧٢ ، النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٦ ، ٣١٤ .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج٢ ، ص٨٩، الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٦ .

(٥) موسى لقبال : الحسبة المذهبة في بلاد المغرب العربي ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،ط١، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٤٤ .

العصر الفاطمي إيجاد تدرج مهني في الجماعة الواحدة، ووجدت تقاليد خاصة بكل صناعة وتجارة تكفل حقوق الطبقة التابع لها [١] .

* وإذا ما انتقلنا للحديث عن المرأة فإننا نجد أنها شغلت جانبًا كبيرًا من اهتمام المحتسب في الدولة الفاطمية باعتباره هو المسئول عن المحافظة على الآداب العامة ، فكان يمنع كل من تطلع من الجيران من السطوحات والمنافذ، كما يمنع أن يجلس الرجال على أبواب بيوتهم في طرقات النساء من غير حاجة، ويمنع أن يجلس النساء على أبواب بيوتهن في طرقات الرجال، أو أن يخلو رجل بامرأة غير جائزة له شرعا الخلوة بها، وكان عليه أن يتفقد الحمامات في كل يوم ويعزر كل من رآه من المستخدمين بلا مئزر، كما عليه أن يتفقد مجالس الوعظ فلا يدع الرجال يختلطون بالنساء بل يجعل بينهم ستارة فإذا انقضى المجلس خرج الرجال من طريق والنساء من طريق آخر، فإذا وقف أحد الشبان في الطريق عزره، كما كان المحتسب يمنع جلوس النساء على أبواب الحوانيت، خاصة حوانيت القطانين والكتانيين [٢]، كما كان عليه منع العادات السيئة التي يتبعها النساء في الجنائز والمآتم [٣] ، ونظرا لازدياد الفساد والمجون في مصر في بعض فترات الدولة الفاطمية بسبب التمييز الطبقي، والمغالاة في البزخ والطرف، والصراعات بين الطوائف المختلفة، فقد حرص بعض الخلفاء الفاطميين على تولي مقاليد الحسبة بأنفسهم، فقد تولاها الحاكم بأمر الله بنفسه سنة (٣٨٦هـ/٩٩٦م) حرصا منه على مكافحة هذه الرذائل الاجتماعية، وقام بإصدار عدة مراسيم وقوانين

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٢٥ ، صالح صالحي : مكانة مؤسسات الحسبة في الاقتصاد الإسلامي ودورها في القضاء على الفساد الاقتصادي ، جامعة سطيف، الجزائر ، ص١٨ .

(٢) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص١٤ ، ٧٩، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،ص٢٠.

(٣) ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسية؛ ص ١٠١ -١٠٦ .

مختلفة، وإنزال العقوبات الصارمة على من يعصي أوامره رغبة منه في فرض هيبته على رعاياه، فقد حرص الحاكم على التجول ليلا في المدينة للوقوف على أحوال الناس [١] ، وكان يزور كل ليلة حيًا معينًا ويشق طائفة من الشوارع والدروب ويستطلع أحوال الشعب وأخباره ، فكان يركب إلى موضع موضع ، وإلى شارع شارع ، وإلى زقاق زقاق وأمر الناس بالوقيد، فتزايدوا فيه بالشوارع والأزقة، وزينت الأسواق والقياسر بأنواع الزينة، وباعوا واشتروا، وأوقدوا الشموع الكبيرة طول الليل؛ وأنفقوا الأموال الكثيرة في المآكل والمشارب والغناء واللهو، ومنع الرجال المشاة بين يدي الحاكم أن يقرب أحد من الناس الحاكم فزجرهم وانتهرهم، وقال لا تمنعوا أحداً، فأحدق الناس به وأكثروا من الدعاء له[٢]، ولكى يتيسر له تحقيق هذه الغاية وتوطيد الأمن أمر بتعليق المصابيح على جميع الأسواق، والحوانيت، والعمائر، والمحال المختلفة في جميع الطرقات استكمالًا للزينة وأيضًا للأمان ، فكان يطلب من أصحاب الحوانيت الإضاءة أمام حوانيتهم، وصدرت المراسيم بذلك سنة (٣٨٣هـ/ ٩٩٣م)، وكان أبوه العزيز بالله قد أمر قبله صاحب كل حانوت أن يعلق على حانوته قنديلًا طول الليل يسرج إلى الصباح في جميع طرقات القاهرة، والفسطاط، وكان يأمر بكنس الشوارع والأزقة وأمام البيوت في كل مكان فكانت المدينة تبدوا في تلك الفترات بالليل كأنها شعلة مضيئة ،في ثوب مشرق من النظافة والأناقة[٣] وقد بالغ الحاكم بأمر الله في ذلك حتى أصبحت أغلب الأعمال، والمعاملات سنة (٣٩٣هـ/ ١٠٠٠م) تجرى بالليل، ثم منع

(١) الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٢، ص٢٢٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤ ، ص١٨٤.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٣٨، الخطط، ج٣، ص١٩٦، محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، ص١٢٣ .

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج١، ص٢٧٧، ج٢، ص٣٩، الخطط، ج٣، ص١٩٥، ١٩٦، محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ص١٢٤.

الحاكم بأمر الله سنة (٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) أن يخرج بعد العشاء لبيع أو شراء عندما بلغه أن بعض العناصر استغلت إضاءة الشوارع والطرقات ليلا للعبث والمجون، مما دفعه لفرض قوانين أكثر شدة، فمنع النساء من الخروج ليلًا بعد العشاء، كما نهى الرجال من الجلوس في الحوانيت، ثم منع الناس كافة من التجول في الطرقات بعد العشاء إلى مطلع الفجر ، وأتبع ذلك بإصدار قوانين تحرم على الأهلين فتح محلاتهم ليلًا [١]، ولما رأى الحاكم أن أوامره السابقة لم تضع حدًا للفوضى الاجتماعية التي سادت البلاد عاد سنة (٣٩٥هـ /١٠٠٤م) إلى إصدار قوانين جديدة، فمنع النساء من السير خلف الجنازات[٢]، ثم أصدر سنة (٤٠٢ هـ/ ١٠١١م) مرسومًا بمنع خروج النساء إلى الأسواق وأغلق الحمامات الخاصة بهم، وأتبع ذلك مرسومًا سنة (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) بمنعهم من مغادرة بيوتهن، والخروج إلى الطرقات نهار أو ليلًا، فلم تر امرأة في طريق البتة، إلا لعدد نادر منهن كغاسلات الموتى، وبشرط الحصول على رقاع ترفع إلى القصر ويصدر بها تصريح يقوم بتنفيذه مدير الشرطة[٣]، وبلغ من حرص الحاكم على تنفيذ أوامره أنه منع صانعي الأحذية من صنع الأخفاف الخاصة بالنساء حتى يتعذر عليهن الخروج من المنازل، كذلك حرم عليهن الاجتماعات للهو على شواطئ النيل المصري بالقاهرة، فأمر بسد أبواب الدور التي على النيل والطاقات المطلة عليه[٤]، فاختفى النساء من المجتمع المصري وساده الانقباض والوحشة وأغلقت المتاجر التي تبيع السلع

(١) المقريزي : الخطط، ج٤، ص٩٣، ٩٤.

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٥٣ –٥٥ .

(٣) الذهبي : العبر في خبر من غبر، ج٢، ص٢٢٠، المقريزي: الخطط، ج٤، ص٧٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٨٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، نشر : مكتبة نزار مصطفى الباز، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٢٩٧، حسن المحاضرة ، ج١ ، ص٦٠٢.

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ج٢ ، ص١٠٣، ١٢٠، الخطط، ج٤، ص٧٦ .

الخاصة بالنساء وساد الذعر بينهن ، ولزمن دورهن في روعة وخشوع ويحدثنا المقريزي عن عيد الفطر سنة (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) فيقول " ولا رؤيت امرأة، ولا أبيع شيء مما عادته يباع في الأعياد من اللعب والتماثيل. واشتد الأمر في منع النساء من الخروج، وحبس عدة عجائز وخدم وجدن في الطرقات" (١).

* وقد حاول البعض السخرية من هذه الأوامر ورموه بسببها بالخلل في العقل والجنون، فقد كان –في رأيهم– يأمر بالشيء ثم ينهى عنه، ولكن هذه المراسيم إذا فسرت تفسيرًا دقيقًا في ظروف المجتمع الذي عاش فيه الحاكم، نجدها تتفق وقاعدة الحسبة، فضلًا عن أنها تدل على وعى كبير لشئون الحياة في زمنه، فنجده يعمل على إجبار الناس على أن يضعوا حدًا لهذا الغلو في المجون والفساد الأخلاقي الذي ساد في عصره، عن طريق الأوامر الرادعة التي تصون الأخلاق (٢).

* واستكمالا للدور الاجتماعي للمحتسب في العصر الفاطمي فقد كان لزاما عليه الحفاظ على أرواح الناس الذين يركبون البحر، فكان يلزم رؤساء المراكب التي تعمل في النيل أو الساحل سواء للتنزه أو لنقل البضائع، ألا يحملوا أكثر من وسق للسلامة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى جعل للسفن والمراكب في صنعها مواصفات طولية وعرضية لا تتجاوزها في الصناعة، وذلك كله بهدف تحقيق الأمان التام(٣) ، كما تدخل المحتسب بما يحافظ على البيئة الاجتماعية للمجتمع بما يجعله يجتث جذور الفساد والفسدة وما يظهر منهم، فقد كان للناس في أيام النيل مرور في المراكب للنزهة، يخرجون فيه عن الجدّ بكثرة التهتك والتمتع بكل ما يلهي، فمنع الخليفة الحاكم بأمر الله سنة

(١) اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص١٠٤، محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ص١٣٤

(٢) عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، ص٩٠– ٩٢.

(٣) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٥٧، المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٨٨.

(٣٨٦هـ/٩٩٦م) من ركوب المتفرّجين وأهل الخلاعة في المراكب في النيل، ونهى عن إظهار المنكر، وعن ركوب النساء مع الرجال، وعلّق جماعة من رؤساء المراكب بأيديهم، ومنع استخدم المراكب لغير الغرض المطلوب(١).

* أيضا نظر المحتسب الفاطمي بعين الرحمة إلى الحيوانات، فأوجب على أرباب السوق وألزمهم حين دخولهم إلى الميادين محملين الدواب ثقال الحمولات من الأتبان، والخضروات، والبلاط، والبطيخ، والكرنب، ونحوها أن يضعوها عن ظهور دوابهم إذا وقفت لأن بقاء هذه الأحمال الثقيلة فوق ظهورها تعذيبًا لها، ولا يحملون الدواب أكثر من طاقتها، ولا يسوقونها سوقا شديدًا تحت الأحمال، ولا يضربونها ضربًا قويًا، كما عليهم أن يراقبوا الله عز وجل في علف الدابة وعليقها، ويكون موفرًا عليها بحيث يحصل به الشبع، ولا يكون مبخوسًا ولا نزرًا (٢) .

* كذلك حرصت الدولة الفاطمية على نظافة المساجد والمشاهد، فكان المحتسب يأمر بكنسها يوميًا، وتنظيفها، ويتفقد حُصُرَها، وقناديليها ليعلم ما تحتاج إليه من إصلاح، وغلق أبوابها عقب الصلاة، وصيانتها من الصبيان والمجانين، ومنع من يأكل فيها، أو ينام، أو يعمل صنعة، أو يبيع فيها سلعة، أو ينشد ضالة، وقد بقى الأمر على ذلك حتى زالت الدولة الفاطمية(٣)، وأوقف الحاكم أصناف الأملاك الكثيرة على الجوامع ودور العلم، وجعلها دائمة لا

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٩١، الخطط، ج٣، ص٢٥٥.

(٢) الغزالي :إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٣٣٩، الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١١٧، ١١٨، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج١، ص٢٨١، أحمد مصطفى المراغي: الحسبة في الإسلام، ص٢٥.

(٣) الشيرزي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٠٣، ١١٠، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٥٥ – ١٥٧.

يوهنها تقادم السنين[١] وكان عليه أن ينبه الحكومة الفاطمية إلى الخطر الذي يحصل للمساجد من التصدع والانهيار بسبب اهمالها وعدم ترميمها [٢].

* كما أصدر الخليفة الحاكم بأمر الله مرسوما سنة (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) أن لا ينجم أحد، ولا يتكلم أحد عن صناعة التنجيم، وأمر أن ينفي المنجمون من البلاد، صدر مرسوم بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها، وان ينفى المنجمون من سائر المملكة، فاستغاث المنجمون بالقاضي الأكبر مالك بن سعيد الفارقي، فعقد لهم التوبة من هذه الصناعة، واعفوا من قرار النفي؛ وحدث مثل ذلك للمغنين والمطربين، فهجروا الغناء واعفوا من المطاردة [٣]، فقد صدر في نفس العام مرسوما بمنع اللهو والغناء ، وأمر ألا تباع مغنية ، وألا يجتمع الناس في الصحراء ، ومنع الناس من الغناء والنشيد ، وهوجمت أماكن البغاء والقصف بشدة وأزيلت دورهم وأوكارهم ، وطهرت منهم أحياء المدينة، وكانوا منتشرون في معظم جنباتها [٤]، كما أصدر الخليفة الحاكم بأمر الله مرسوما سنة (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) حرم فيه لعب الشطرنج، وجمع حيثما وجد وأحرق، وعوقب المخالفون بالحبس والجلد[٥] .

* وقد أتت هذه الأوامر والمراسيم ثمارها، وتسببت في زوال الكثير من المنكرات التي كانت موجودة، وأدت إلى انتشار الأمن والطمأنينة إلى حد كبير، وكان من أثر ذلك الإشراف الدقيق، والنظام السائد أن ازدهرت الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وأصبح النشاط على أشده، وقد صورت لنا كتب

(١) عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، ص٨١ .

(٢) ابن تيمية: الحسبة في الإسلام، ص٢٥، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج١، ص٢٨١، ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٧٥ .

(٣) ابن خلكان: وفيان الأعيان، ج٥، ص٢٩٤.

(٤) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، ص١٣١ .

(٥) المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج٢ ، ص٩٠ ، الخطط ، ج٤ ، ص١٦٥، محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، ص١٣٣ .

الرحالة المسلمين ذلك النشاط، وسجلت الرحالة إعجابها بثروة البلاد، ورخائها، وأمنها، والتسامح الديني فيها، وازدهار فنونها، وعدالة النظم الاجتماعية فيها.

* وقد استطاع الرحالة الفارسي ناصر خسروا أن يدرس الحياة الاجتماعية بمصر، وذكر أنه لم يعرف بلدًا يستمتع بمثل ما ظفرت به مصر من الأمن والهدوء ذلك الوقت، وقد بلغ من أمن المصريين واطمئنانهم إلى حكومتهم مبلغا وصل إلى أن البزازين، وتجار الجواهر، والصيارفة، لا يغلقون أبواب محلاتهم بل يسدلون عليها الستائر، ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده إلى شيء منها، وقد لاحظ أن الصناع والعمال فيها يمنحون أجورًا مرضية، فيقبلون على العمل بسرور وانشراح [١] .

(١) سفر نامة، ص١٠٨ ، عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، ص٦٣.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فمن خلال هذا البحث تم التوصل إلى عدة نتائج يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

* الإسلام منهج كامل للحياة، لم يترك جانبًا من الجوانب إلا وقد أقامه على أفضل تنظيم وأدقه.

* تهدف الحسبة إلى استقامة أمور الناس في الدنيا، لنشر الخير والفضيلة، وإقامة القسط والعدل، وكان لها أثرها البارز في كل مجالات الحياة.

* حافظ المحتسب الفاطمي على نظم المجتمع المصري في إطار الضوابط الصارمة التي شكلت سلطته على المجتمع، وتوجيهه أيما توجيه في النواحي الاقتصادية، والصحية، والاجتماعية.

* كانت وظيفة الحسبة من الوظائف المهمة لدى الفاطميين إذ إن متوليها كان يتم اختياره بعناية فائقة إذ يجب فيه أن يكون من وجوه العدول وأعيانهم، وكان من شأنه أنه إذ خلع قرئ سجله بمصر والقاهرة على المنبر، ويده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* كانت تولية المحتسب في العصر الفاطمي تتم بمراسيم غاية في الفخامة مثل ما كان لأرباب الوظائف الكبيرة في الدولة، فكان الخليفة يستدعيه بنفسه إلى القصر ليمنحه كتاب التولية، وكان يخرج من القصر في موكب ضخم يطوف به الطرقات.

* كان عمل المحتسب الفاطمي ذا طابع خاص يختلف تمام الاختلاف عن عمل أي محتسب آخر، فعمل المحتسب الفاطمي كان لتحقيق أغراض مذهبية بحتة، فكان لا يحكم إلا وفق المذهب الشيعي حتى ولو كان سنيًا، وذلك بجعل المبادئ الشيعية جزءًا من قواعد الحسبة، وكان ذلك يتجلى في تطبيق

المحتسب للأوامر والقوانين والمراسيم الشيعية في مختلف المجالات التي تقع تحت اختصاصه.

* كان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله شديد الاهتمام بالحسبة، فقد قام بأمور الحسبة بنفسه، وكان يراقب الأسواق، وأصحاب الحرف، والصناعات لمنع الغش، وكان يعاقب المخالف عقابًا صارمًا، وقد حاول البعض السخرية من هذه الأوامر، ورموه بسببها بالخلل في العقل، لكنها في الحقيقة تدل على وعى كبير لشئون الحياة في زمنه، فهدفه من تلك الأوامر وضع حد لهذا الغلو في المجون والفساد الأخلاقي الذي ساد في عصره، عن طريق الأوامر الرادعة التي تصون الأخلاق، وتحافظ على المجتمع.

* كان دور المحتسب الفاطمي الاقتصادي يتجلى في مراقبة تلاعب الباعة وأهل الحرف بالمكاييل والأوزان، وإلزامهم بالبيع والشراء بالسعر المحدد، ومنعهم من الغش والتطفيف في الكيل والميزان، والإشراف على تنظيم المهن والمعاملات داخل الأسواق.

* كان للمحتسب الفاطمي ونوابه نشاط كبير في المجالات الصحية، فقد أولى صحة الإنسان اهتمامًا كبيرًا، خاصة مراعاة صحة الرعية وسلامتهم داخل المنظومة البيئية، وكانت هناك عدة قواعد صحية للحسبة في العصر الفاطمي كلها تهدف إلى المحافظة على سلامة السكان، ونظافة المدن، وخططها، وشوارعها.

* كان لنظام الحسبة في مصر في العصر الفاطمي أثره الكبير وأهميته الخاصة في تنظيم الحياة الاجتماعية في مصر خلال هذا العصر، فقد حرص المحتسب الفاطمي على مشارفة الأسوق، والنظر في مكاييلها وموازينها، ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشترى، واهتم بإرساء قواعد الآداب، والأخلاقيات العامة، وحفظها في الطرقات، والأسواق، والكيانات المختلفة التي تشهد حركة الناس، وتعاملاتهم في حياتهم الاجتماعية.

قائمة المصادر والمراجع (١)

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر.

ابن الأثير : علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م) :

١-الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري (ت ٦٠٦هـ/١٢١٠م):

٢- النهاية في غريب الحديث والأثر تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد بن الأخوة القرشي(ت٧٢٩هـ/١٣٢٩م):

٣- معالم القربة في طلب الحسبة، تحقيق : محمد محمود شعبان، صديق المطيعي ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ،١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م،

البخاري : محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي (ت٢٥٩هـ/٨٧٠م):

٤- صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، نشر : دار طوق النجاة بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

ابن بسام : محمد بن أحمد بن بسام المحتسب (ت حوالي ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م):

(١) اتبعت في ترتيب هذه القائمة للمصادر عدم اعتبار الملحقات " آل، وأب، وابن،... وغيرها" بالنسبة للاسم الأول فقط ، وأما المراجع ، فقد رتبتها حسب الاسم الأول للمؤلف ، وحسب حروف الهجاء .

٥- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، أحمد فريد المزيدي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣ م ،

ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الحنفي(ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م):

٦- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني(ت ٧٢٨هـ/١٣٢٨م):

٧- الحسبة في الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ط١ .

ابن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ/٨٥٥م):

٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ،نشر: مؤسسة الرسالة ،ط١، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي (٨٠٨هـ/١٤٠٥م):

٩- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

ابن خلكان : أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م):

١٠- وفيان الأعيان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١ ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي (ت ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦م):

١١-- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري، بيروت، د.ت .

الدواداري : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م):

١٢- كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، وسعيد عبد الفتاح عاشور، وآخرون، عيسي البابي الحلبي، القاهرة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

ابن الديبع: وجيه الدين عبد الرحمن بن علي الشيباني (٩٤٤هـ/١٥٣٧م):

١٣- بغية الإربة في معرفة أحكام الحسبة، تحقيق: طلال بن جميل الرفاعي، نشر: معهد البحوث العلمية، مكة المكرمة، السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت ٧٤٨هـ /١٣٤٧م):

١٤- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عوّاد معروف، نشر: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

١٥- العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م.

سبط ابن الجوزي: يوسف قزاوغلي حسام الدين بن فيروز البغدادي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م):

١٦- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق: جنان جليل محمد الهموندي، الدار الوطنية، بغداد،١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ابن سعيد المغربي : علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م):

١٧- المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٣ ،١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

السقطي المالقي: محمد بن أبي محمد السقطي المالقي الأندلسي(ت٥٠٠هـ/١١٠٧م) :

١٨- آداب الحسبة، تحقيق: ليفي بروفنسال-كولان، نشر: مطبعة إرنست لورو- باريس، ١٣٤٩هـ/١٩٣١م .

السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين(ت٩١١هـ /١٥٠٥م):

١٩-تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش،مكتبة نزار الباز، القاهرة،ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٢٠- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر ، ط١ ،١٣٨٧هـ /١٩٦٧م .

الشيزري: عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله العدوي الشيزري (ت ٥٩٠هـ/١١٩٤م):

٢١- نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، تحقيق : الباز العريني ، مطبعة التأليف والنشر ، القاهرة ،١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م):

٢٢- الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .

الصُّنْهاجي : محمد بن علي بن حماد بن عيسى الصنهاجي القلعي (ت ٦٢٨هـ/١٢٣١م):

٢٣- أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق: التهامي نقرة، عبد الحليم عويس، نشر: دار الصحوة ، القاهرة .

الطبري : محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م) :

٢٤- تاريخ الرسل والملوك ، دار التراث ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) :

٢٥- إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت ،لبنان ، ط١ ،١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م):

٢٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ١٤٠٩/١٩٨٩م .

ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) :

٢٧- البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م .

الكندي : محمد بن يوسف بن يعقوب المصري(ت بعد ٣٥٥هـ/٩٦٦م) :

٢٨- الولاة والقضاة ، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

ابن ماجة : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ/٨٨٦م) :

٢٩- سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢.

الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م):

٣٠- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

مسلم : مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ/٨٧٥م) :

٣١- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

المقريزي : أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م):

٣٢- اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: د جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط١ ،١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.

٣٣- السلوك في معرفة دول الملوك: تحقيق: محمد عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٣٤- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ /١٩٩٧م .

ابن مماتي: الأسعد بن المُهذَّب بن مينا بن زكريا بن مَمّاتي (٦٠٦هـ/١٢٠٩م):

٣٥-قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال، مطبعة مصر، الإسكندرية، د. ط، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٣م.

ابن منظور : محمد بن مكرم بن على أبو الفضل الأنصاري (ت٧١١هـ/١٣١١م):

٣٦- لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

ناصر خسرو: ناصر خسرو الحكيم القبادياني المروزي (ت٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) :

٣٧-سفر نامه، تحقيق: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

النووي: محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) :

٣٨- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ، ط٢، ١٣٩٢هـ /١٩٧٢م.

النويري : أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م):

٣٩- نهاية الأرب في فنون الأدب، نشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة،ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

اليافعي : عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٧م):

٤٠- مرآة الزمان وعبرة اليقظان، وضع حواشيه: خليل المنصور، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

ثالثاً: المراجع.

إحسان عباس(ت١٤٢٤هـ/٢٠٠٢م) :

٤١- شذرات من كتب مفقودة في التاريخ: دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

أحمد مصطفى المراغي :

٤٢- الحسبة في الإسلام، تحقيق: محمد عبد الرحمن الشاغول - مكتب الروضة الشريفة للبحث العلمي، الجزيرة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

أيمن فؤاد سيد:

٤٣- الدولة الفاطمية تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، ط١، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

تيسير محمد شادي :

٤٤- الفساد في الدولة الفاطمية (سياسيًا- إداريًا- اجتماعيًا- اقتصاديًا) ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، د.ط ،١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

الحسن بن زولاق:

٤٥- أخبار سيبويه المصري، نقله وكتب تراجمه: محمد إبراهيم سعيد، حسين الدبب، مطبعة النصر، مصر، ط١، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م .

حسين مصطفى غانم :

٤٦- الإسلام وحماية البيئة، مكة المكرمة، السعودية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

رشيد الحمد ومحمد صباريني :

٤٧- البيئة ومشكلاتها، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون ولآداب، الكويت، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

زين الدين عبد المقصود :

٤٨- البيئة والإنسان علاقات ومشكلات، دار عطوة، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

سهام مصطفى أبو زيد:

٤٩- الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

سيدة إسماعيل كاشف :

٥٠- مصر في عصر الإخشيدين، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م .

صالح صالحي:

٥١- مكانة مؤسسات الحسبة في الاقتصاد الإسلامي ودورها في القضاء على الفساد الاقتصادي، جامعة سطيف، الجزائر .

عبد المنعم ماجد:

٥٢- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٢٧٢هـ/١٩٥٣م .

عبد المنعم ماجد:

٥٣- الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م.

عطية مصطفى مشرفة:

٥٤- نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٨-١١٧١م)، دار الفكر العربي، مصر، ط١، ١٣٦٧هـ/١٨٤٨م.

غسان طه ياسن:

٥٥- دور مؤسسة الحسبة في حماية البيئة في الإسلام، مركز التنوير المعرفي، ماليزيا، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

فينوس ميثم علي:

٥٦- دراسة مقارنة بين الحسبة في العصر العباسي والعصر الفاطمي في بلاد الشام، الجامعة المستنصرية، كلية التربية الأساسية، بغداد، مجلة مداد الآداب، العدد١٩.

محمد عبد الله عنان :

٥٧-الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

محمد فتح الله الزيادي :

٥٨- الإسلام والبيئة ، طرابلس، ليبيا .

محمد محمود محمدين/ طه عثمان الفراء :

٥٩- المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة، دار المريخ ، ط٤ .

محمد مرسي محمد مرسي :

٦٠- الإسلام والبيئة ، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ط١، ١٤٢٠/١٩٩٩م .

محمد ناصر الدين، نوح نجاتي آدم الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م):

٦١- مختصر صحيح الإمام البخاري، مكتبة المعارف ، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م،

موسى لقبال :

٦٢- الحسبة المذهبة في بلاد المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

نزية حماد:

٦٣- معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، المعهد العالمي للفكر الإسلامي فرجينيا، الولايات المتحدة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.